الوجه الأحمر

نشوان زيد علي عنتر

الذبراس
للطباعة و النشر

الدب الأحمر

(رواية)

بقلم :

نشوان زيد علي عنتر

٢٠١٢م

الإهـداء :

إلى شقيقتي الكبيرة أطال الله في عمرها

..... المؤلف

(١)

ظلت الموسيقى صاخبة إلى حد لا تطاق و ليس بوسع أية أذن مرهفة تحمل هديره المزعج ، و مع ذلك لم يهتم الحضور بذلك و هم يدكون الأرض دكا عنيفا تحت إيقاعاتها المثيرة حاملين الكؤوس إلى أعلى نقطة في السقف حيث تحاول أيديهم العابثة الوصول إليها عبثا في قصر الدون ماركو ماتزيني أحد أعيان الأرجنتين و لاسيما منطقة باهيا بلانكا و الملقب بملك القطن لإمتلاكه أكبر مزارع و مصانع للقطن من بين تجارها و صناعها بأسرهم ، فسليل عائلة ماتزيني الأرستقراطية من ذوي الدم الأزرق العائدة جذورها العريقة إلى الدون باولو ماتزيني أحد أهم نبلاء صقلية خاصة و الجنوب الإيطالي عامة و سليل أحفاد ملوك صقلية الكلبيين القادمين من اليمن في العصور الوسطى حيث كان يتحكم بنصف إقتصادها قبل أن ينقض ثوار إيطاليا الفتاة[١] و البعث المتحمسين لوحدة بلادهم الوطنية الطائشين في أساليبهم الثورية على مملكتي نابولي و صقلية عام ١٨٦٩م دون أن تكسر شوكة ما تبقى من فلولهم الذين سرعان ما نظموا أنفسهم تحت مسمى المافيا فيما بعد أواخر القرن التاسع عشر و أن كان لم ينقلوا فكرهم هذا إلى الأرجنتين ذلك البلد النائي في أقصى جنوب القارة الغورانية[٢] و الذي أصبح مع مرور الزمن غالبية سكانه من الإيطاليين .

ظلت الحفلة صاخبة حتى وقت متأخر من الليل و لاسيما أن الفتيات اللائي ينتمين إلى المجتمع المخملي لمنطقة باهيا بلانكا لم يتوقفن عن الثرثرة و الهمز و اللمز و الشرب و الرقص و كل واحدة منهن تمني نفسها بنيل الحظوة لدى صاحب البيت الذي يخلب ألبابهن بوسامته الطاغية دون أن يدرين ما وراء قناعها الخفي حوله و لاسيما و أن الإشاعات المغرضة تدور حول إختفاء

[١] حركة سياسية سرية كانت تهدف إلى توحيد كامل التراب الايطالي و تحريره من الاحتلال النمساوي آنذاك و قد تأسست عام ١٨٤٠م على يد جيوزيبي ماتزيني الذي لا علاقة له ببطل روايتنا سوى أن كليهما من نفس الأسرة و أصولهما تعود إلى صقلية (المؤلف) .

[٢] يقصد بها قارتي امريكا الشمالية و الجنوبية نسبة الى سكان الاورغواي الاصليين الغورانيين (المؤلف) .

العديد من الفتيات داخل أروقة قصره دون أن يحرك أحدهم ساكنا بخصوص هذا الموضوع ما عدا بيانكا فيسكتونتي المهووسة به مذ كانت تسمع عنه الكثير من أبيها الدبلوماسي السابق الدون باولو فيسكتونتي الموظف في شركتهم التجارية منذ تأسيسها على يد والد ماركو و تتطلع إلى لقائه في يوم من الأيام لتأتيها الفرصة إلى قدميها عندما وجه لوالدها و عائلته لحضور أحد حفلاته المثيرة تلك ، سيما و أنها كانت مناسبة خاصة في ذلك اليوم تتعلق بتكريم العاملين في شركاته و مصانعه يحضرونها بصحبة أسرهم دون أن تدري أنها هي أول فتاة يقع في شباكها العديمة الفائدة ! ماركو ماتزيني الذي كان يركع نصف نساء باهيا بلانكا تحت قدميه بجاذبيته الساحرة التي لا تقاوم لأول مرة يركع أمام امرأة أو بالأحرى ليست بإمرأة ناضجة حيث لاتزال في مرحلة المراهقة شابة صغيرة طرية العود لم يمسسها بشر بعد من شدة القيود التي يفرضها والدها على تحركاتها منذ كانت طفلة صغيرة ، إضافة إلى أنها ليست بارعة الجمال كغيرهن من اللواتي حضرن الحفلة و يفقنها جمالا و حسنا لا نظير له ، و مع ذلك إنجذب إليها بشغف عميق لم يشهده طوال حياته (مساء الخير يا سيدتي الجميلة ،،،،،،، هه ؟! ما بك لما جفلت هكذا ؟! لقد قلت لك مساء الخير فقط ، فلا تخافي ،،،،،، م م م مساءء الخي ي ي ر يا سيدي الدددووون ،،،،،،،،، أوه يا إلهي ، ما زلت تتلعثمين في كلامك و خائفة مني مع العلم أني لا أخيف الفائقات الجمال مثلك ، صدقيني ؟ ،،،،،، أااهذاا المديح موجه إلي يا سيدي الدددووون ؟!!! ،،،،،،،، أجل ،،،،،،،،، و لكني لا أستحق كل هذا ، فأنا مجرد فتاة عادية و لست بهذا الجمال الطاغي الذي تتصوره ،،،،،،،،، بل أنت أجمل فتاة رأيتها في حياتي خلال الحفلات التي أقيمها أسبوعيا في قصري ..... أنا لا أجاملك بتاتا ، أنها الحقيقة الساطعة بنورها الطاغي في كبد السماء الرمادية التي تملأ مدينتنا حزنا

و كآبة ،،،،،،،،، يا إلهي ، إنه أجمل كلام أسمعه في حياتي ؟!! ،،،،،،، حقا ؟ ،،،،،، أجل يا سيدي الدون)

لم يصدق الدون ما سمعة لتوه من مجاملة رقيقة مرهفة ملؤها البساطة البحتة من فتاة ساذجة لم تخبر جيدا عالم الحفلات الخاصة بعلية القوم و كواليسها الغامضة المنحطة كسيدها النبيل الذي لا تعرف و غيرها من بنات جنسها سوى الجانب المشرق منه ، و لاسيما أن أيا منهن ما أن يدخلن بلاطه المخملي حتى يضعن في سردابه المظلم إلى غير رجعة .

(٢)

لم يدر في خلد بيانكا الطيبة بتفكيرها السطحي أنها تواجه شخصا غريب الأطوار ، تحسبه ملاكا طاهرا من الظاهر فإذا به يخفي تحت وجهه البريء براءة الذئب من دم يعقوب شيطانا رجيما يجر ضحاياه إلى فخاخه الوهمية حيث أوقع فيها نظيراتهن الأذكى منهن حيث مايزال حتى هذه اللحظة يسير على نهج والدته الراحلة كارولينا تافياني المعروفة بجمالها البسيط و أطوارها الغريبة الموروثة من عائلتها القادمة من ميلانو المنحدرة من أصول إجتماعية متدنية أن لم نقل منحطة في عرف الطبقة الراقية هناك لإنتمائهم الحرفي لفئة منظفي مداخن موسميين يعملون صيفا خلال القرن السادس عشر الميلادي قبل أن يهاجروا كغيرهم من أبناء جلدتهم إلى سان خوان عام ١٦٦٦م بلهفة أرنب تحرر من قيد صياده و ذله عساهم يجدوا في الأرض الجديدة ما يعيد إليهم كرامتهم المفقودة منذ أجيال فيخيب ظنهم بعد مرور ثلاث سنوات من هجرتهم العسيرة للغاية حيث تكبدوا فيها الأهوال و المصاعب ما يفوق ما واجهه مواطنهم كريستوفر كولمبوس خلال رحلته نحو العالم الجديد عام ١٤٩٢م لترى النور هناك بعد مرور عقد و نيف من تاريخ هجرتهم المذكور آنفا لتنشأ بعد ذلك في حي فقير جدا معظم قاطنيه من القادمين أو بالأحرى الفارين من العاصمة بيونس إيريس و الإشتباكات العسكرية بين الثوار و المستعمر الإسباني آنذاك ليعملوا في مناجم الفحم الشبه مهترئة مع إحتمال ضئيل بنجاتهم منها و بأجر بخس لا يقدر بثمن تضحيتهم تلك مقدارها حوالي عشرة بيزو في اليوم دون أن يتخلوا عن بساطتهم الطفولية و روحهم المرحة المنسجمة مع طبيعتهم العفوية مما جذبها للإنخراط في عالمهم الغريب منذ الصغر حتى بلوغها سن الثالثة و العشرين و إلتهام عقلها الهلامي لجميع عاداتهم و تقاليدهم حتى السلبية و الغريبة منها كتعدد الزوجات و الأزواج المخالفتان لعقيدتها الكاثوليكية المتشددة و السحر و الكهانة و حفلات الليل

السرية في أماكن بعيدة و غامضة جدا تشمل الجنسين و يختار مدبرها عروسه الليلة حتى و لو كان متزوجا بواحدة أو إثنتين و إذا رفضت يكون مصيرها الموت على يد حيوانهم الخرافي الدب الأحمر المنبثق من النيران فجأة نحوها دون أن ينقذها أحد البتة من مخالبه و أنيابه الحادتين سيفا ناريا يقطع رؤوس من حوله دون رحمة أو شفقة من أغراضه الخاصة ..... و غيرها من الأمور التي رسختها في عقل إبنها الغير شرعي المهووس برغباته المقدسة منذ نعومة أظافره حتى بعد زواجها من أبيه الذي وقع في شبكاها قبل ثلاثة أشهر من إقترانها به و غواياتها السحرية لأي رجل يقع في حبال أعمالها الإجرامية حتى مصرعها عام ١٨٧٠م على يد أحد أزواجها العديدين الذين تزوجت بهم إلى جانب زوجها فينقلب السحر على الساحر في ليلة و ضحاها و بتحريض من حماتها التي كانت تمقتها بشدة و تمقت أصلها الوضيع إجتماعيا ، إلا أنها لم تفلح في نزع أفكارها الغرائبية من رأس إبنها الذي ظل ملخصا لها إلى حد الولع و الهوس الكبيرين حتى بعد بلوغه سن الرشد ، بل إنه زاد على ذلك أنه أقام حفلات تعدد الزوجات و الأزواج جهارا في حفلاته المثيرة للجدل المقامة في بيوته الفاخرة هنا و ببيونس آيرس دونما أي إعتراض من رجال الكنيسة و على رأسهم الكاردينال خوليو دياز شريكه في تقاسم أرباح تجارة الألياف القطنية في شمال البلاد أو لفيف من النبلاء في باهيا بلانكا قاطبة و لاسيما أخوال زوجته الثانية فيليبا من عائلة الفونسو مويا حفيد الجنرال فريديريكو مويا قائد البحرية الإسبانية الذي لقي مصرعه خلال ثورة ١٨٣٠م[٣] ، و خلال هذه الحفلات يقوم بالزواج من أي فتاة متواجدة فيها شريطة أن إلا يتجاوز سنها السابعة عشرة من عمرها و أن تكون عذراء و جميلة و من باهيا بلانكا و بغض النظر عن طبقتها الإجتماعية بإعتبار أننا بشر مهما تعددت أنماطنا التي تميزنا عن غيرنا و معظمها من صنع أيدينا حسب إعتقاده

[٣] هي ثورة شعبية حدثت في اسبانيا تزامنا مع نظيرتها الفرنسية و أدت إلى الإطاحة بالملك شارل الثالث قبل أن يستعيد عرشه من الثوار بعد أسبوع من قيامها في شهر يونيو ١٨٣٠م (المؤلف) .

المنبثق من عقيدته الغورانية الوثنية على الرغم من تعميده في كنيسة سان بيدرو بعد بلوغه ثلاثة أسابيع على ولادته المتعسرة آنذاك و غالبا ما كن يختفين بعد يوم واحد من زواجهن به ، فسرت الشائعات بأن الدب الأحمر إلتهمهن لأنهن لم يسمعن الكلام و بقين معه مدة ثلاثة أيام و قلة منهن كتبت لهن النجاة من شر قبضته المميتة كما يزعمون سكان باهيا بلانكا ، فقد كان ماركو بعد زواجه الشفهي و بحضور رجال الدين و القضاة في ليلة واحدة من ١٠ فتيات يضاجعهن على الطريقة السليمانية[٤] الواحدة تلو الأخرى خلال ١٠ ساعات و هن في غرف خاصة بهن ضمن بيته الذي يفوق كاتدرائية بيونس آيرس الرسمية مساحة بثلاث مرات ملكا غير متوج على عرشه المخملي بين جدرانها الرخامية ، و حلقات الزار الليلية التي كان يعقدها في حديقته الخلفية تحت إيقاع أنغام و رقصات الكابويرا[٥] التي تعلمها علي يد بيدرو كالبيري خادمه البرازيلي الزنجي الأمين على أسراره منذ أن إلتحق بالخدمة في قصره بعد فراره من سيده الإقطاعي السيد الفونسو بالبوا صاحب أكبر مزارع الموز في بورتو اليجيري بولاية الجنوب الكبير عام ١٨٣٢م إثر إقدام الأول على حرق إحدى الإسطبلات و قتل فيها الثاني و إبنه بعدما إغتصبا إبنته العذراء الصغيرة السن و التي لم تبلغ الحلم و ذبحاها ذبح البعير أمام سكان الإقطاعية الذين لم يحركوا ساكنا نحوهما .

الغريب أن هذه الحفلات المريبة كانت تجرى في جلسات علنية ، و الأغرب أنها تتم بحضور شخصيات رسمية رفيعة المستوى ، و الأكثر غرابة هو إقدام العديد من الإباء و الأمهات بمختلف فئاتهم في المدينة و ضواحيها على إرسال بناتهن لهذا الغرض و هذا ما لم تدركه بيانكا منذ الوهلة الأولى أو بالأحرى تعمدت عدم إدراكه و لاسيما أنها تذكرت كلام والدتها الحاد ذات ظهيرة مغبرة بحذافيره قبيل ذهابها إليه تلكم الليلة بساعات (،،،،،، إياك أن تتركيه خلال الحفلة ،،،،،،، يجب

[٤] نسبة إلى سيدنا سليمان عليه السلام (المؤلف) .

[٥] رقصة برازيلية مشهورة موطنها الأصلي انغولا (المؤلف) .

أن تلتصقي بجسده دون توقف إلتصاق الحرباء بشجرة البلوط الرمادية القريب من منزل جارتنا الحسودة المملة ماريانا سانشيز و تستمري في إغوائه حتى يقع في حبائلك أيتها الغبية ،،،،، هذه فرصة لا تعوض لعائلتنا لنخرج من وحل الفقر المتمرغين في قذارته حتى أنوفنا لأجيال تحت غطاء المركز الحكومي المرموق الذي ناله والدك بعد تقاعده من الخارجية فلا تضيعيها بحماقتك و بلاهتك الساذجة طفلة صغيرة لا زالت تستجدي والديها أن يبتاعوا لها ألعابا بعدما شبت عن الطوق ،،،، إياك ثم إياك) .

كيف لا و قد أصبح الدون ماركو في نظرهم بمثابة طريق العبور نحو الطبقة الأرستقراطية دون أية عوائق تذكر البتة بعدما أقام شبكة واسعة و هائلة من العلاقات الشخصية الوثيقة بكبار المسئولين – مدنيين و عسكريين على حد سواء – و عائلاتهم في كافة مرافق الدولة آنذاك ، ليصبح رضاه صك الغفران الوحيد الذي يمنحه نيافتة لمن يزور كنيسته المخملية من عباده المخلصين زرفات و وحدانا و لكن بعد أن يقدموا له بناتهم العذارى كقرابين سامية توضع على شرف مذبحه المقدس ، فمن فقدت عذريتها و فضت بكارتها على يديه نالت حظوته الكريمة و ضمن أهلها الإنتقال إلى طبقة أعلى و مستقبل أفضل لا تشوبه شائبة بالمرة ، أما من تتمرد عليه فإن الدب الأحمر الذي يخرج من الحديقة الوردية سيلتهمها و عائلتها في نفس الليلة التي يبدأ بمضاجعتها و خلال دقائق ، و هذا ما حدث فعلا لبضع بنات حاولن ألا يخضعن لرغبات ذويهن و الإمتثال لأوامره و شروطه كماتيلدا ألبرتو التي وجدت جثتها ووالدها الأعرج المنكوب بتصرفها في صباح اليوم التالي عند أطراف حديقة الكاردينال بابلو المهجورة منذ ثلاث سنين مشوهتان و أذرعهما و أرجلهما بل و رأسيهما مفصولة عن أجسادهما تماما في شهر يونيو صيف عام ١٨٦٦م ، بل أن هناك فتيات لقين نفس مصير ماتيلدا المفجع و أكثر على الرغم من إنهن سلمن أنفسهن طواعية له ليفض بكارتهن

دون أي اعتراض و السبب عدم إلتزامهن بشروطه إثناء المضاجعة إلا و هي تجردهن من الثياب تماما كما ولدتهن أمهاتهن و تقييد أذرعهن و أرجلهن بالسرير و دهن أجسادهن بزيت الخردل الحار حتى يحميهن من الأرواح الشريرة كما يقول قبيل المضاجعة التي تتم في كافة أنحاء جسدهم و عض الأعضاء التناسلية فيها دون إستثناء ..... و غيرها من الشروط الغريبة و القهرية التي تتدل على مدى المازوشية الطاغية التي ورثها من والدته و يمارسها على النساء دون إعتبار لأعمارهن أو مكانتهن الاجتماعية .

(٣)

(إذن عدم الإلتزام بشروطه في تلكم الليالي الحمراء هو الذي يؤدي إلى ظهور الدب الأحمر الذي يلتهم المذنبة و عائلتها دون رحمة ؟!)

هكذا تسألت بيانكا فيما بينها حول تفاصيل هذه الليالي المرعبة التي يقيمها الدون في قصره دون أن تعرف كنهها قبل أن تقدم إليه مكرهة من قبل والديها لتشرفه في أحداها ، إلا أنها سريعا ما نسيت كل هذا ، فهوس لقائها الاستثنائي بدون جوان باهيا بلانكا و فارس الغرام و هادم قلوب العذارى إلى حد إخضاعهن و إركاعهن تحت قدميه تحت سياط جاذبيته الأخاذة و وسامته الساحرة طغى على تفكيرها البسيط المحدود البصيرة لساعات طوال و تناست كل ما راودها من مخاوف و شكوك أكيدة مما قيل عنه أو ما يسيء إلى سمعته ، فضلا عن ولعه العميق بالأدب الرومانسي و لاسيما الشعر منه و بالأخص أشعار فيكتور هوجو و الفريد دي موسيه و ميلتون و شكسبير و جوته و شيللر ملقيا على مسامعهن أجمل القصائد الغزلية الخاصة بهم التي تثير صبابة الوجد و تشعل نار العشق فيهن إلى حد الوقوع في فخ إغرائهن الساحرة فيسقط في الأرض من شدة سحرهن المبهر و لاسيما قصائد شاعره المفضل شيللر[٦] الذي حفظ جميع أشعاره (حتى غير الرومانسية منها) عن ظهر قلب لما فيها من جراءة و صدق في التعبير لا حدود له و شخصيته الغريبة الأطوار ، أما بيانكا فلا يثير وجدها و إحساسها المرهف سوى شعر الدون الذي بدأ يقرض الشعر منذ أن ألقى أول قصيدة له و هو لا يتجاوز الثامنة من عمره بفضل تشجيع والده المتزايد له لولوج هذا الحقل الأدبي المفرط الحساسية حيث كان متأثرا بدانتي[٧] من ناحية أبياته المقفاة و جماله اللغوي و شيللر

[٦] شاعر مسرحي الماني كلاسيكي (١٧٥٩-١٨٣٢م) ظهر في القرن الثامن عشر الميلادي من مصنفاته الادبية مسرحية (اللصوص) (المؤلف) .

[٧] شاعر إيطالي كلاسيكي من أدباء عصر النهضة الاوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي ، و من مصنفاته الشعرية (الكوميديا الالهية) و (الجحيم) (المؤلف) .

من ناحية المضمون و أن كانت تفتقر للمهارات الأدبية التي لديه ، فهي مثل غيرها من بنات جنسها المنتميات للطبقة الأرستقراطية الساذجات المعزولات عن العالم الخارجي آنذاك بين جدران قصورهن المخملية المجاورة لميدان كالديرا بلازا حتى في نيلهن قسطا وافرا من التعليم الرسمي و اللائي يقعن في حبائل أمثاله و وجوهم الفائقة الوسامة و كلامهم المعسول من أول نظرة و أن كانت لم تتأثر بكلام أي من هؤلاء أو حتى وقعت في شباكهم كمن في مثل سنها رغم طيبتها الزائدة و عدم خبرتها بعالم الأحبة و العشاق إلا أنها وضعت نصب أعينها على الدون و لم تكن تريد أحدا سواه منذ سمعت عنه العديد من الأقاويل و القصص المروية حوله و أسراره الغارقة في الغموض حيث يجرؤ أحد على سبر غورها أو حتى كشف الستار عنها إلى حد هذه اللحظة حاملة في طياتها رغبتين جامحتين لم تنطفئ جذوتهما بعد من سعي حثيث لكشف الأسرار الدفينة لهذا الرجل الغامض حتى تتمكن من تحقيق الثانية في إمتلاك قلبه و السيطرة عليه كيلا يحب أية فتاة سواها و يصبح ملكا لها وحدها ، و عندها ينقلب السحر على الساحر و تضحى بلا منازع الجميلة التي أخضعت الوحش لحبها الرقيق و قلبها الطيب .

لم ترق هذه الأجواء الشبقية المرحة لإثنين من رفاقه أو بالأحرى أشقائه كما يحلو له تسميتهم و لاسيما الذين تدوم صداقتهم معه لمدة عشرين سنة خلت –كارلوس و بيدرو حيث لم يخفيا تململهما الشديد منها على الرغم من أن أنهم يعدونها كل ليلة بصفتهم أمناء سره و يدعون من يريده راعيها دعوته حتى و لو كان من الذين يكرهونه (،،،،،، إلى متى بيدرو سيظل أخونا الأكبر يقيم مثل هكذا حفلات كل ليلة ؟!! ألم يمل ؟!!! ،،،، كيف تريده أن يمل و هو يستقبل يوميا جيشا من الحسناوات الفاتنات اللائي يحتشدن أمامه و يحلقن من حوله ركوعا و سجودا سعيا لنيل رضاه المحمود و بركته المقدسة ليمارس عليهن العادات التي ورثها من والدته المتعلقة بمراسيم هذه

الليالي و حفلاتها المثيرة للشبق عليهن ؟!!!! لقد أصبح يتجاهلنا يا كارلوس و يتجاهل الجلسات اليومية التي تجمع كافة إخوتنا في بيونس آيرس و قرطبة كل نهار في حديقة بالميراس و لا يلتزم بمواعيدها البتة ،،،،،، أصمت يا بيدرو حتى لا يسمعنا ،،،،،، لكني ضقت ذرعا من هذا الوضع الشاذ تماما ،،،،،، أنت محق ، منذ أن ورث العادات من أمه أقصد أمنا حتى أضحت له مراسيم مقدسة و الخروج عنها يعد كفرا و هرطقة و لكن ما باليد حيلة ،،،،،،، ماذا تقصد بعبارة ما باليد حيلة ؟!!! إلا نستطيع إقناعه بترك هذا العبث الذي يهدر عليه وقته و ماله ؟!!! تقصد مالنا و وقتنا يا بيدرو ، فنحن أشقاؤه و جلنا ننتمي إلى عائلة واحدة إلا و هي عائلة ماتزيني و الأموال التي يبعثرها ذات اليمين و ذات الشمال على من لا يستحق هي من حقنا و لا يجوز أن يأخذها منا دون إذن منا ،،،،،،، كارلوس حذار ! إياك أن تنطق بهذا الكلام مرة أخرى ، مفهوم ..... ثم من قال لك إننا أشقاؤه حتى تنسبنا إلى عائلته و أمواله دون وجه حق ؟!! هل نسيت أننا أصدقاؤه المخلصين الذين من شدة إخلاصنا له أنعم علينا بلقب إخوة في الدم لدرجة أنه منحنا هويات جديدة لنا صادرة من مصلحة الجوازات و الجنسية في العاصمة لتؤكد إنتمائنا إلى عائلته .... و طبعا مستغلا نفوذه و ثروته التي طغت على مرافق الدولة و مسئوليها و التي لولاها لما إستطعنا أن نظفر بهذا النعيم الذي ترفل به الآن بعد أن إنتشلنا من قعر الفقر و البطالة حيث كنا من جرائها نقضي جل وقتنا في التسكع في شوارع المدينة و باراتها و حاناتها و الجري وراء الفتيات الجميلات من مختلف الطبقات دون جدوى ..... فلا تفسد كل هذا بهذيانك السخيف ذلك الذي سيورد بنا مورد المهالك و تدفعه إلى قتلنا و دفننا تحت التراب ، مفهوم ؟ ،،،،،،، مفهوم ، و لكن ما العمل ؟ ،،،،،، دعني أفكر في حل لهذا المشكلة ، المهم إلا تشغل بالك بها و أن تهتم بما يطلبه أخونا الدون فورا و دون أية اعتراض أو تأخير ، مفهوم يا أخي كارلوس ؟ ،،،،،، مفهوم

،،،،،،، كارلوس ! ،،،،،، حاضر يا أخي الدون ، إنه يناديني ، أراك لاحقا بيدرو ،،،،،،، لا عليك ، تشجع و إذهب)

تقدم بيدرو ببطء شديد معبرا عن حالة التذمر و الحيرة التي كانت تكتنفه وقتها نحو الدون الغارق في ملذاته إنشغاله و إنتشائه برؤية ضيوفه و زواره الوافدين رجالا و نساء من كل حدب و صوب طمعا في كرمه و بركاته السحرية المزعومة حيث سرعان ما يختفي كل هذا لحظة إقترابه منه و يباشره بتقديم آيات الإحترام و التبجيل له كأن شيئا لم يكن :

(سيدي الدون ،،،،،،،،،،،،،، ما وراءك يا بيدرو حتى تتجرأ على مقاطعتي و ضيوفي هكذا ؟!! ،،،،،،،،،،، العفو منك سيدي الدون و لكنه أمر ملح لا يحتمل التأجيل ،،،،،،، حسنا حسنا تعال معي إلى غرفة المكتب لتطلعني عليه و من ثم تنصرف من أمامي في التو و اللحظة و تعود إلى عملك ، مفهوم ؟ ،،،،،،،،،، أمرك سيدي ،،،،،، هيا إتبعني)

ما أن دخلا إلى غرفة المكتب على إثر استئذان الدون من ضيفته الصغيرة و نظرائها الآخرين لبعض دقائق حتى تعالى صراخه من هناك دون أن يلق أحد بالا به تحت صخب الموسيقى العالي متجاوزا الحد المعقول و لاسيما إنه وصل إلى حد تكسير منافض السجائر و الأقلام و قذف الأوراق و المحبرة على رأس تابعه بيدرو :

(آه، آه أرجوك يا سيدي، أتوسل إليك ،،،،،،، تتوسل إلي ؟! تتوسل إلي أيها السافل اللعين ؟!!! خذ ،،،،،، لماذا يا سيدي ؟!!! هل إرتكبت جريمة عندما إستقبلته في القصر ؟!!!! ،،،،،، طبعا إرتكبت جريمة ، و جريمة لا تغتفر ؟!! هل نسيت أنني أخبرتكم مرارا و تكرارا بألا تدخلوا هذا

الرجل إلى بيتي مجددا ، أليس كذلك ؟ ،،،،،،، ااا ،،،،،،، أليس كذلك يا بيدرو ؟!!! بلى يا سيدي بلى و لكن ،،،،،،،، و لكن ماذا ؟!!! تكلم !)

بدأ بيدرو يهمس في إذن سيده حتى لا يسمعهما أحد على الرغم من هدير موسيقى التانغو الصاخبة التي طغت على أسماع الحاضرين و باتوا على إثرها جيشا من الصم و دون أن توقف نظرات بيانكا الطفولية المتسمة بالخجل و الفضول البريء نحو الدون خالب لبها من الوهلة الأولى تترصد حركاته حتى عندما إختبئ عن أعين ضيوفه الدائمين مع رجليه في غرفة المكتب و لو للحظات قصيرة لم تستطع أن تمحوه من مخيلتها حافرة كل جزء من جسده المخملي الساحر في أرجاء عقلها الصغيرة و الذي يتسع لثلاثة أضعاف من أمثاله .

(٤)

ما أن دخل الدون مع مرافقيه بيدرو و كارلوس حتى بدا لهم رجلا في خريف العمر شبه وسيم وقور وقار الطبقة الارستقراطية ملؤه الغرور و الأنفة ، لم تخلو وسامته من بعض التجاعيد الصغيرة دون أن تؤثر على رشاقته الملفتة للنظر و التي لم يبالي الدون بها عندما استشاط غضبا بعينين ثائرتين تتحينان الفرصة للانقضاض علي أي شخص يقف لهما بالمرصاد :

(ما الذي أتى بك إلى هنا يا دييغو بحق الجحيم ؟! ،،،،،،،،، رويدك يا ماركو رويدك ، أهكذا تستقبل رفيق دربك و صديق طفولتك ؟ .... ،،،،،،،، أنا لست صديقك و لا أعرف أمثالك ، لذا سأسالك للمرة الأخيرة ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ،،،،،، االلعنة ، مشاكل الحياة يا عزيزي ،،،،، من قال أنني عزيزك ؟! و عن أية مشاكل تتحدث ؟ ماذا إرتكبت من حماقات مجددا هذه المرة ؟ أجب عليك اللعنة ،،،،،، حسنا رويدك ، أعطني فرصة لأشرح لك الأمر ، هل تسمح لي بالجلوس ؟ ،،،،،، همم حسنا ، كارلوس ، بيدرو ، إنتظرا خارجا ، و لا تسمحا لأي شخص بالدخول إلى أن ننتهي من حديثنا ، حذار من عدم إطاعة أوامري بهذا الشأن ، مفهوم ؟ ،،،،، مفهوم سيدي (ينصرف المرافقان) ،،،،،، تفضل ، كلي آذانا صاغية ، هات ما وراءك و بسرعة فوقتي ضيق ،،،،،، حسنا ، لقد أتيت مبعوثا من طرف الدون الأكبر ،،،،،،، الدون الأكبر ؟! عن أي دون أكبر تتحدث ؟!!! ،،،،، الدون كوستاميني ،،،،،، لا تكن سخيفا يا دييغو ! لست في مزاج جيد كي أستمع لأكاذيبك السمجة الآن ، مفهوم ؟،،،،،، أنا لا أكذب عليك يا ماركو ، أنا فعلا مبعوث الدون كوستاميني ،،،،، عدت إلى اللف و الدوران يا دييغو ؟ ،،،،، أنا ألف و أدور ؟ ،،،،،، طبعا يا دييغو تلف و تدور كعادتك، فمن غير المعقول أن أصدق أن حضرتك أيها السكير المقامر يا من أصبحت زبونا دائما لدى أقسام الشرطة في باهيا بلانكا على حد سواء قد أضحيت

بين ليلة و ضحاها مبعوثا للدون الكبير ؟! من أنت حتى تصل إلى مقامه الرفيع و تتجرأ على نيل هذه الحظوة الهامة من إرادته السامية و لا سيما أني أرسلتك إليه لكي تعمل عنده مديرا لقصره لا أقل و لا أكثر ؟!! ،،،،، أعرف ذلك يا سيدي الدون ، أنا فعلا مبعوث حضرته إليكم ، و عندي الدليل على ذلك ، هاك إياه ،،،،،،، ريشة القمري الأبيض و هي لا تزال طرية رغم أنها موضوعة في منديلك الحريري الأزرق ؟!!! أنت محق فيما يبدو ، معنى هذا أنك تعرف كلمة السر ، أليس كذلك ؟ ،،،،،،، بالطبع أعرف ،،،،،، و ما هي ؟ ،،،،،،، الفيل الطائر يبعث لك الورد الشوكي ،،،،،،،، و أنا زرعتها في قلبي الصغير ، مرحا بالعضو الجديد في عائلتنا المتواضعة يا دييغو (يتصافحان) و أظنك تعرف من يخالف تلك العضوية ،،،،،،، بالتأكيد أعرف ،،،،،،، أشك في أنك تعرف ..... ما علينا ، فيما أرسلك الدون إلي ؟ ،،،،،،،،،، إنه بخصوص البضاعة البيضاء ،،،،،،،،،، قلت البضاعة البيضاء ؟!! ،،،،،،،، بلى يا سيدي ،،،،،،،، ألم يخبرك بأني أرسلت عددا كبيرا منها إلى نابولي الأسبوع الماضي ؟! ،،،،،،،،، بلى يا سيدي و لكنه يريد المزيد ،،،،،،،، المزيد ؟! لماذا ؟!! ألم تكفه الفتيات اللائي أرسلتهن إياه و كان عددهن يفوق سكان باهيا بلانكا بأسرها ؟!! ،،،،،، يقول أن الطلبات قد زادت ،،،،،،،، عن أي طلبات تتحدث ؟!! ألا يعرف حضرته مدى الصعوبة التي أجابهها عند توفير هذه البضاعة له ، أنها ليست بالمهمة السهلة و لاسيما في بلد ليس ببلدنا ، أخالك فهمت ما أعنيه يا دييغو ، أليس كذلك ؟ ،،،،،،،، بلى و لكن يقول بأن الطلبات عنده زادت و هو بحاجة ملحة لتلبيتها فورا ،،،،،،، بل قل إنه الجشع الزائد عن حاجتهم و لا يكفون عن طلب المزيد ،،،،،،،، حسنا ، و ماذا سأقول لسيدي الدون الآن ؟ ،،،،،، قل له سأتدبر له الكمية المطلوبة خلال أسبوعين ،،،،،،،،، إذن ستلبيها الآن ؟ ،،،،،،، ماذا دهاك يا دييغو ؟! إلا تفهم أيها الغبي ؟!!! قلت لك خلال أسبوعين و ليس أيام ، لذا

ستمكث في المدينة ريثما أنهي الطلبية المطلوبة مني و من ثم تسافر و هي بحوزتك ،،،،،، تقصد أنني سأقيم هنا في قصرك خلال تلكم المدة ؟ ،،،،،، لا لا إقامتك في قصري ستثير الشبهات و لن تجعلنا نؤدي مهمتنا السرية كما آمرنا الدون الكبير على أكمل وجه ، وقتها ستقيم عند صديقي إميليو ريتيفيز بإعتبارك إحدى تجار الأراضي القادمين من العاصمة بيونس آيرس و أتيت لشراء أرضي الكبيرة في سان بيدرو ، مفهوم ؟ ،،،،،،، و هو كذلك يا سيدي ،،،،،، إذن ستذهب مع كارلوس لتحضير حقائبك و حملها إلى هناك ، كارلوس ، بيدرو ،،،،،،،، نعم سيدي ،،،،،، رافقا السيد دييغو إلى هذا العنوان و إحملوا حقائبه إليه دون أن يعلم أحد من الحضور بوجوده ، مفهوم ؟ ،،،،،،، (يتحاوران فيما بينما) أصبح دييغو السكران يلقب بالسيد ؟ ها ها ها ،،،،، (يصرخ عليهما غاضبا) ما بكما تضحكان كالحمقى ؟ هيا نفذوا ما أمرتكم به الآن ،،،،،،،،، آمرك سيدي)

و ما إن إنصرف ثلاثتهم و تبخروا وسط الحضور الغارقين في ملذاتهم مطلقين لأهوائهم و رغباتهم الجامحة العنان رجالا و نساء على حد سواء عدا بيانكا التي لم تذق الشراب الأكل لحظتها و المتحرقة شوقا لرؤية الدون ماركو و التشبث به مخافة ألا يعود للظهور أمامها مجددا على الرغم من إنه غاب عنها مدة أربعة دقائق فقط ليعود على إثرها لإستقبال ضيوفه و الترحيب بهم كعادته قبل أن يفاجئ بإندفاعها نحوه محتضنة إياه أمام الملأ دون خجل من أحد و حتى من والديها المندهشين منها ، فما لبث أن إبتسم لها و لمس شعرها الأصهب الصغير بيد حانية سرا سحره أرجاء جسدها و ملأها في غضون ثوان بالراحة و الطمأنينة ، فإستشاط والدها غضبا من هول ما رآه فسرعان ما قام بإنتزاعها منه صارخا في وجهها :

(ويحك أيتها الفتاة كيف تجرئين على تصرف كهذا و أمامي ؟ ،،،،،،،،،، آسفة يا أبي لم أقصد ذلك و بروح العذراء لم أقصد ذلك ، صدقني ،،،،،،،،،،،، و تتجرأين على الكذب علي أيتها الحقيرة (ينهال عليها بالضرب فيتدخل الدون ماركو فيمسك يده و يوقفه عند حده) ،،،،،،،،،،، دعها يا سينيور باولو و حذار من ضربها و إلا طردتك ، مفهوم ؟ ،،،،،،،، أنا آسف يا سيدي الدون لم أكن أقصد ذلك ..... ،،،،،،، لم تكن تقصد ذلك ؟!! لقد أحرجتني أمام ضيوفي بتصرفك هذا و في قصري أيضا ، أأنت مدرك لذلك ؟ ،،،،،، بلى سيدي الدون و لكن أردت فقط تأديبها ،،،،،،،، تأديبها ؟! أنها لم ترتكب أية خطأ يذكر ، كل ما في الأمر أنها إعتقدتني والدها للشبه الواضح فيما بيننا ، أليس كذلك يا سنيورا بيانكا ؟ ،،،،،،، ب ب بلى سيدي الدون ، هو كذلك ،،،،،،، حسنا يا إبنتي ، لقد فهمت الآن و أرجو أن تقبلي إعتذاري عما بدر مني حينها ،،،،،، ما هذا يا أبي ؟ من أنا حتى تعتذر مني ؟ أنا في النهاية إبنتك و قرة عينك ، و سأقبل بأي شئ تأمرني به ،،،،،، (يحتضنها بحنان) أشكرك يا إبنتي العزيزة ،،،،،،،،، أرايت يا سينيور باولو ؟ لقد أنجبت ملاكا طاهرا لم يمسسه البشر بخبثهم و خبائثهم طيلة حياته و لن يسئ إلى سمعتك البتة ، و تأتي الآن تقول لي أنها بحاجة إلى إعادة تربيتها ؟ و أين ؟ أمامي و الحضور ؟ لقد بالغت في تصرفك هذا يا عزيزي ،،،،،،،،، أنت محق يا سيدي الدون ، لن أكرره مجددا ما حييت)

و ما أن قبل جبهة إبنته معتذرا حتى عادوا الحضور إلى ما كانوا عليه من إستمتاع ماجن مطلق بحفلتهم المخملية و كأن شيئا لم يحدث البتة ، فضلا على أن الدون ماركو تميز برباطة جأش عالية أخفت ما كان يعتريه لحظتها من قلق و توتر شديدين داهماه منذ أن تلقى رسالة الدون الكبير عن طريق أسوا رفاقه منذ المدرسة الثانوية دييغو فالزاني و الذي كان يستغل طيبته في أحايين و يعيش

على حسابه حتى بعد أن أصبح كهلا في أرذل العمر و أواخر أيامه ، و لاسيما أن الأول أصبح زعيم الطلبة في المدرسة بفضل الأخير الذي عرفه للجانب الخلفي من حياة المدارس بمن فيهم من أساتذة و مدراء و طلاب بكافة طبقاتهم الإجتماعية و أعراقهم المختلفة و أيضا لم ينس جميله عندما دافع عنه مرارا و تكرارا ضد من يعتدون عليه منذ كانوا أطفالا في حي مارتانا القديم الذي إنهار لاحقا على يد أحد المسئولين في الدولة الذي سطا عليه و أنشا مكانه لبلازا مول أكبر مركز تسوق في باهيا بلانكا حتى وقتنا الحاضر ، و ما زاد من توتره إلحاح الدون الكبير على سرعة الرد على طلبه و فورا و بلا تأخير و هو المعروف كعادته بإنتظاره الطويل عليه حتى يتم تجهيز الطلبية و التي عادة ما تستغرق على أقل تقدير ثلاثة أسابيع أو شهر كحد أقصى منذ أن خاض غمار هذه التجارة الغير المشروعة قبل عامين و التي لا يعرف سرها أحد سواهما قبل أن يحيط دييغو به علما ليصبح سره محصورا لدى ثلاثتهم لا رابع لهما .

و ما أن وضعت الحفلة أوزارها و غادر ضيوفه السكارى بإرادتهم لقصره و من بينهم بيانكا التي رحلت مع أبيها مرغمة و هي التي كانت تمني نفسها بالبقاء هناك حتى تشهد حفلاته السرية تلك و تتعرف على أجوائها الغامضة و لا سيما الدب الأحمر الذي يظهر في ختامها ليخطف إحدى الفتيات الجميلات العذراوات حيث كانت تحلم لحظتها حسب زعمها بأن تحل محل إحداهن و تصبح فريسة سهلة له إلى أن يأتي فارس أحلامها الدون ماركو ينتشلها و ينقذها من مخالبه و أنيابه المرعبة و يأخذها على حصان أبيض براق يملأ ضوئه الساطع أرجاء السماء الحالكة السواد و يثير غيرة النجمات الخجولة الصغيرة منه حتى و لو كان الثمن هتك عرضها علي يديه ، لم يتوقف تفكيرها الهادر حيال هذا الأمر حتى و هي مسجاه على الفراش تتزمل ببطانيتها الوردية الشفافة التي جلبها والدها من النمسا أثناء عمله مستشارا في سفارة بلادها هناك حيث كان من أوائل العاملين

فيها لحظة افتتاح مقرها في فيينا عام ١٨١٨م و رغبتها الجامحة في معرفة حفلاته السرية تلك عل و عسى تكون أحد نزلائها في يوم من الأيام مما دفعها في الأخير إلى كسر جميع القواعد و العادات التقليدية المقيدة لحرية الفتاة في المجتمع الأرستقراطي الريفي آنذاك لتتسلل عبر الممر السفلي الخلفي بكامل زينتها دون أن يلاحظها أحد ، سيما و أنها ملمة بكل صغيرة و كبيرة في قصر عائلتها المرمري الأزرق هذا و أن لم تسلم من ملاحقة المتشردين على ناصية شارع أبيدالجو في ساحة المدينة و أجوائه المقفرة و تنجح في الإفلات من قبضتهم القذرة تحت رداء الظلام الدامس الحالك السواد لتقع في قبضة أجوائها الموحشة متجهة نحو قصر الدون عبر طريق الحديقة الوردية المليء بهدير أصوات الأشباح و عويل الذئاب و نعيق الغربان المشؤمة من أعلى قمم باتاغونيا الثلجية الصامت صمت القبور إلى أن رأت بصيصا من الضوء الأخضر ينبثق من القصر فأسرعت الخطو نحوه متجاهلة كل ما يوقف عزيمتها الطاغية من غضب والدها و الأشباح و الذئاب و الأصوات المرعبة التي لا وجود إلا في دثار الليل الأسود لهذه المدينة البائسة تحت ثناياه إلى أن بلغت أسواره الخلفية ، و ما أن إقتربت منه حتى لمحت خيال أشخاص يحملون مجموعة من التوابيت الخشبية مروا من أمامها بلمح البصر فأسرعت في الإختباء وراء شجرة بلوط ضخمة محاذية للسور دون أن يمنع أذنيها المتجمدتين من شدة الخوف و البرد عن سماع الآهات و الصرخات الغريبة المكتومة و الشبه أنثوية قبل أن يضع أحدهما قبضة يده على فمها بالقوة و هي تحاول عبثا الصراخ أو الإستنجاد بأحد أو رؤية الشخص الذي أمسكها من الخلف لكن دون جدوى حيث ما لبثت أن أغمي عليها دون أن تبدي آية مقاومة أو حركة لخاطفها و هو بيدرو أحد رجال الدون حاملا إياها بين ذراعيه إلى رفيقه كارلوس الذي كان يشرف على سير نقل التوابيت إلى عربة الشحن حيث وبخه بشدة :

(ما الذي فعلته بحق الجحيم ؟! ،،،،،،، وجدتها تراقبنا فقمت بالإمساك بها ،،،،،،، أرني إياها ، يا إلهي ؟! أن الآنسة بيانكا باولو ، ما الذي تفعله هنا ؟ ،،،،،،،، لا أعرف ،،،،،،،، إذن خذها إلى غرفة المعيشة في المقصورة الخلفية للقصر ، هيا ،،،،،،،، حسنا)

ما إن أخذاها إلى هناك حتى أسرعوا خطاهم نحو سيدهم الدون ماركو الذي صب جام غضبه عليهما بالضرب و التوبيخ :

(أغبياء ، أغبياء ،،،،،،،، سيدي لقد فوجئنا بقدومها نحونا لحظة تأميننا للبضاعة ،،،،،،،، و هذا دليل قاطع على غبائكم ، ألم أنبهك يا بيدرو و شددت عليك بأن تؤمن كافة أرجاء القصر حين ننهي العملية هذه الليلة ؟ ألم أمركم بذلك ؟ ،،،،،،، بلى ، و لكن إعتقدنا أنها أتت إلى هنا بناء على موعد مسبق بينكما يا سيدي ،،،،،، لا تكن أحمقا يا كارلوس ، أهناك فتاة من الطبقة الأرستقراطية في باهيا بلانكا تأتي إلى قصر رجل لا تعرفه و دون أن تستأذن من والدها ؟ و متى في منتصف الليل و قد أصبح الناس نياما خلال هذا الوقت ؟ ،،،،،،،،،، سيدي هذا ما حصل ،،،،،،،، حسنا أخبرني يا بيدرو هل رأت وجه أحدكما و أنتما تقبضان عليها ؟ ،،،،،، كلا أبدا ،،،،،، و أين وضعتاهما ؟ ،،،،،،،، في المقصورة الخلفية ،،،،،،،، رائع ، أحسنتما صنعا ، و بما أننا إنتهينا من تحميل البضاعة ، سأذهب إلى المقصورة الخلفية و معي كارلوس لأخذ بيانكا منها و حملها إلى العربة بإتجاه منزلها ، أما أنت يا بيدرو فسترافق سائق العربة حتى مرفأ بونتا ألتا حيث سيلقاكم دييغو هناك و نحن سنوافيك فيما بعد ، مفهوم ؟ ،،،،،،، مفهوم يا سيدي ،،،،،،،، إذن هيا بنا)

(٥)

ما أن وضعاها في العربة الملكية حتى إنطلق بسرعة البرق تسابق من خلالها الريح العاتية و تخوض غمار الشوارع المقفرة الممتدة من قصره الرمادي ليلا و الأزرق نهارا كما لو كانت حرباء مجمدة لا حراك فيها لم تتزحزح من مكانها قيد أنملة حتى ضاحية توليدوس حيث منزلها مما يوحي لنا تمرسه المحنك في القيادة تحت رداء الظلام الدامس مذ كان يتجه في صغره إلى شاطئ لاروزيتا في المحيط الأطلسي لتهريب السجائر الكوبية و بيعها في السوق صباحا بثمن مرتفع كي يؤمن مصروف الجيب الذي كان محروما منه بأمر والده عقاب له على إهماله لدروسه و إنشغاله بملاحقة الفتيات بمدرسة روساس الإبتدائية المجاورة لمدرستهم و دير سان أنطونيو على حد سواء ، و ما إن وصلا إلى مقربة من تلة صغيرة تشرف على منزل السنيور باولو حتى أوقف الدون العربة مخاطبا كارلوس :

(ها قد وصلنا إلى منزلها ، أنت ستحملها إلى المنزل و تتحدث مع والدها ،،،،،،، أنا يا سيدي ؟! ،،،،،،،، أجل أنت ، لما أنت خائف هكذا ؟ ، أنت فقط ستأخذ إبنته إليه و تشرح له فحسب ،،،،،،،،، ألن تأت معي يا سيدي ؟ ،،،،،،،، و لماذا أتي معك ؟ ،،،،،،، السنيور باولو يعرفك جيدا و تستطيع إقناعه بما حدث ،،،،،،، لا تكن غبيا يا كارلوس ، فوجودي معك سيجعله يشك بإبنته و يثير البلبلة لدى الناس حول ما حدث ، لذا فمن الأفضل إن تذهب إليه بمفردك ،،،،،،،،، و ماذا سأقول له ؟ ،،،،،،،، ستخبره بأنك عندما كنت ترجع قافلا إلى بيتك في ضاحية توليدوس و هو فعلا يقع هناك ، أنك لمحت لصا متخفيا و هو يقفز من نافذة إحدى الغرف الخلفية حاملا إبنته المغمى عليها و أنت أنقذتها و خلصتها من بين يديه ، و من المعروف عنك يا عزيزي كارلوس أنك لاعب جودو من الطراز الأول منذ أن كنت تؤدي الخدمة العسكرية في كانسو و السنيور

يعرف ذلك ،،،،،،،،،،،، أأأجل يا سيدي ، هذا صحيح ، و لكن ماذا سأفعل لو شك في كلامي ؟ ،،،،،،،، هيه ، كف عن هذا الهراء ، أنت رجل الدون ماركو و لا يجرؤ أحد مهما علا قدره على الشك فيه و في كلامه ،،،،،،، حسنا يا سيدي ، سأحمل الآنسة بيانكا معي و أقابله وحدي ،،،،،،، جيدا ، و أنا سأنتظرك في العربة ، إطمئن أنها بعيدة عن الأنظار ، هيا)

و ما إن أنهيا حديثهما المقتضب لما شابه من التوتر و الخوف حتى إنطلق كارلوس حاملا بيانكا بين ذراعيه و قارعا الباب بشدة ليفتح له الحارس المذهول مما رآه أمامه لكن ليس أكثر ذهولا من والدها الذي لم يصدق في البداية ما رواه كارلوس قبل أن يقتنع أخيرا بما قاله دونما إعتراض لإدراكه جيدا أنه من المستحيل الشك في رجل محسوب على الدون ماركو و تحت حمايته ، فضلا عن غضبه العارم من تصرفات إبنته الغريبة عليه منذ ليلة البارحة حيث ما إن حملها و هي نائمة إلى غرفتها دون أن يغمض له جفن من شدة غيظه المستعر نحوها إلى حد قذفها بقوة نحو سريرها الذي تكسر من تأثيره العنيف دون أن تفيق صاحبته الغارقة في نعاسها المطبق عليها أو تتضرر منه بأي حال من الأحوال ، و مع ذلك ظل الشك يراوده كثيرا حيال هذه القصة التي رواها كارلوس له قبل قليل و يلتهم ذاكرته دون توقف و لاسيما فيما يتعلق بوجود هـ بالقرب من منزله في مثل هذه الساعة من منتصف الليل حيث لم يذق حينها النوم دقيقة واحدة بسببه حتى إنبلاج صباح اليوم التالي ، فلم يطق الإنتظار طويلا فسرعان ما إتجه نحو إبنته و فتح باب غرفتها بقوة دون أن تفيق من نومها و يوقظها بشكل عنيف أفزعها إلى درجة الرعب :

(آه ، ما الأمر يا أبي ؟ لقد أفزعتني ،،،،،،،، أفزعتك ؟ أهذا الذي أثار غضبك أيتها اللعينة (يصفعها بقوة) ،،،،،،،، آه ، أنا لعينة ؟!! لماذا يا أبي ؟!! ما الذي حدث ؟!!! ثم ، كيف عدت إلى هنا ؟ ،،،،،، كيف عدت إلى هنا ؟ هذا هو السؤال الذي ظل يشغل تفكيري طوال الليل و لم

أجد إجابة عليه حتى ، و أريد ردا عليه الآن و إلا قتلتك ، هيا إنهضي أيتها الحقيرة ، إنهضي عليك اللعنة (يسحبها من يدها و يجرها من شعرها) ،،،،،،،،، أبي مهلا ، أنت تؤلمني ، أتوسل إليك يا أبي ،،،،،،،،، قلت لك إخرسي و تعالي معي إلى غرفة المعيشة الآن لتخبريني بما حدث و إلا سأقطعك إلى قطع أمام الجميع ،،،،،،، (يشد شعرها و يضربها و هي تصرخ) أمي النجدة يا أمي ، هئ هئ هئ ، أمي)

ما أن سمعت الأم صراخ إبنتها الذي يلهج حزنا شديدا من فرط الدموع و العويل الخارق لجدران قصرهم المتشح بالبياض الكئيب حتى حاولت عبثا إنقاذها من براثنه القاسية فاذا به ينهال عليها أيضا بالتوبيخ و الضرب و هو يسعى يائسا لإنتزاع إعترافها بحقيقة ما حدث البارحة ضابط شرطة شرس يستخدم العنف و التعذيب مع من يحقق معهم داخل المخفر لتستسلم على إثرهما و تخضع للأمر الواقع و تبوح له بسر الأشياء التي عملتها أم تعملها على حد سواء البارحة رغما عنها :

(حسنا ، حسنا ، أعصابك يا أبي ، سأقول الحقيقة ،،،،،،،، (يترك شعرها الأصهب) جيد ، ها أنذا أسمعك ، تكلمي ،،،،،، حسنا ، لقد خرجت من المنزل ليلة البارحة لرؤية الدون ماركو بعدما تأكدت من أنكم نمتم جميعا ،،،،،،، لرؤية الدون ، أيتها الوقحة ،،،،،،، إنتظر يا باولو ،،،،،،، إنتظر ماذا يا باوليتا ؟ أنها تعترف لنا بالحرف الواحد أن ذهبت خلسة ليلا إلى قصر الدون لمقابلته ، أليس هذا وقاحة و خروجا سافر لعادات و تقاليد العائلة بحد ذاتها ؟ ،،،،،،،، لو كانت فعلت ذلك لسمعنا وقع خطواتها و هي تخرج من المنزل أو لإنتبه الحارس لوجودها ،،،،،،،، الحارس لم يرني البتة لأني خرجت من الممر السفلي الخلفي ،،،،،،،،،، يا للروعة !! و من الممر السفلي الخلفي ؟ أرايت يا باوليتا ؟ إبنتنا تستغفلنا ،،،،،،،، أبدا و الله يا أبي ، لم أكن اقصد الفرار من البيت للقيام بعمل فاضح يخدش حياء عائلتنا و مكانتها بين الناس هنا في باهيا بلانكا ،،،،،،،،

إذن كيف تفسرين ما قاله لنا كارلوس البارحة عندما أتى بك إلينا محمولا على ذراعيه منتصف الليل ؟ ،،،،،،،،،، قلت حملني كارلوس إلى هنا و أنا نائمة ؟ ،،،،،،، أجل ،،،،،،،،،، و ماذا قال لك ؟ ،،،،،،، أخبرني أنه خلال عودته إلى منزله لمح لصا يفر من قصرنا و هو يخطفك و يحملك على كتفه فأنجدك من قبضته بصعوبة ، هل هذا صحيح ؟ ،،،،،،، الآن فهمت ،،،،، فهمت ماذا ؟ أفصحي يا فتاة ،،،،،،،، أبي سأخبرك بكل ما جرى ليلة الأمس بمنتهى الصدق و الصراحة ، و بعد أن تسمع كل ما سأقوله لك الخيار في أن تقتلني أم لا)

و بدأت بيانكا تروي تفاصيل ما حدث بالأمس برمتها أمام دهشة والدها البالغة التي إختلجت مع غضبه المكتوم غير مصدق للتصرف الذي أقدمت عليه إبنته في ذلك اليوم و أن كان على يقين بأنه ليست المرة الأولى التي لاحظ فيها إهتمامها الزائد بالدون ماركو منذ أخر حفلة حضرتها قبل يومين و هي لم تمسح من ذاكرتها صورته في مخيلته البتة و على إثر ما سمعه منها حتى أمسك بشعرها و رقبتها بكلتا يديه و كاد أن يقتلها لكنه ما لبث أن تراجع و إحتضنها في صدره ماسحا على شعرها و عينيها و هما يتصببان سيلا من الدموع من شدة الحزن الذي بدا عليها :

(لما فعلت ذلك يا إبنتي لما ؟ ،،،،،،،، لم أستطع يا أبي أن أكتم مشاعري الفياضة حياله بالمرة ، فوجدت نفسي أجر جسدي مسلوبة الإرادة نحو قصره دون أن أدري ،،،،،، كان عليك أن تخبريني بحقيقة مشاعرك تلك ، ألا تعرفين أن الإقتراب من هكذا رجل و في الظلام الدامس معناه الموت أو الهلاك على يديه لا محالة ، أن لديه إنفصام في الشخصية ،،،،،،،،،، خفت أن تنهال علي بالضرب و توبخني ،،،،،،، ما تقولينه صحيح يا إبنتي ، أباك هذا لا يعرف سوى إستخدام العنف في تربية أولاده ،،،،،،، باوليتا ! ماذا دهاك ؟!! ،،،،،،،، حسنا حسنا ، سأصمت و لن أتكلم (تضع يدها على فمها) ،،،،،،،، لا عليك يا ابنتي ، الآن سأدعك ترتاحين في غرفتك ريثما تعد لك

بارتولا طعام الإفطار ،،،،،،،، حسنا يا أبي ،،،،،،، (يحاول تقبيل يدها فتسحبه منه بسرعة) و سامحيني على مافعلته اليوم حيالك ،،،،،،،، أستغفر الله يا أبي ، أنت لم تقم إلا بواجبك كأب رؤوم يحب أولاده و بناته و يحميهم من أعدائهم (تقبل يده) و روحنا فداك إذا أردت ذلك بإشارة منك ،،،،، (يحتضنها باكيا بحرارة) يا حبيبتي)

ما أن تركها إلى غرفته مع زوجته التي رأته يبدل ثيابه بسرعة :

(لما تغير ثيابك ؟ هل أنت ذاهب إلى مكان ما ؟ ،،،،،،،، ذاهب إليه ،،،،،، إياك أن تقول أنك ذاهب إلى الدون ماركو ،،،،،،، لا تتهور يا عزيزتي ،،،،،، أتهور ؟! هل ذهابي إلى الدون ماركو يعتبر نوعا من التهور ؟ ،،،،،،، عندما تسأله عما حدث البارحة لإبنتنا يعتبر تهورا بل هو الجنون بعينه ،،،،،،، كل هذا لأني أحاول هو معرفة الحقيقة منه ؟ و تعتبريه تهورا خطيرا ؟ ،،،،،، طبعا يا عزيزي ، لأنك تريد أستجواب الدون ماركو بجلالة قدره الذي بإشارة منه يستطيع سحقك و سحق عائلتنا و إزالتهما من الوجود ،،،،،،،، أعرف ذلك ، لكني أعرف أيضا بأن هذه إبنتي و لن أسكت عما حدث لها ،،،،،، لا تكن عاطفيا إلى هذا الحد يا عزيزي ، ثم منذ متى تهتم لأولادك و أنت لا تعيرهم أية رعاية البتة ؟ كل الذي يشغل تفكيرك هو العمل و الأملاك و مكانتك الاجتماعية فحسب ، منذ متى ؟..... ،،،،،،،،، من اليوم يا باوليتا ، هل عندك إعتراض ؟ ،،،،،،،، (تبكي) باولو ، بحق القديس يوحنا الدومينيكاني[٨] و بحق سيدتنا العذراء ، لا تتهور في تصرفاتك معه ، لا أريد أن أخسرك ، أرجوك أن تعود من عنده سالما (ترتمي على أحضانه) ،،،،،،،، لا عليك يا باوليتا ، إطمئني ، لن أحدثه في هذا الموضوع بتاتا ،،،،،، حقا ؟ ،،،،، طبعا يا عزيزتي ، و هل

[٨] نسبة الى جماعة الرهبان الدومينيكانيين التي تاسست على اثر تاسس كنيسة روما عام ٣٤٠م و تعتبر احدى الجماعات الدينية التي تنضوي تحت لوائها و تتولى امور الاديرة و الرهبنة في البلدان التي يتواجد فيها اتباعها في ارجاء المعمورة و تعني رجال يوم الاحد باللاتينية (المؤلف) .

عهدتني أخلف وعودي معك ؟ ،،،،،،،،، بالتأكيد لا ،،،،،، إذن إلى اللقاء (يقبل رأسها) ،،،،،،،، رافقتك السلامة يا عزيزي)

لم يكن يعني باولو ما قاله باوليتا بحذافيره ، فأثناء سيره إلى قصر الدون لم يتوقف عقله المدور دقيقة واحدة عن التفكير في هذا الموضوع و يدفعه أحيانا أخرى إلى للغضب الحاد القابل للإنفجار في أية لحظة لا يمنعه من حدوثه سوى مهابة الطرف الرئيسي في القصة و مكانته الرفيعة وسط نخبتهم المخملية على الرغم من مساوئه و تصرفاته ، فهو لا يجرؤ على إتهام الدون ماركو و محاسبته أو حتى مسألته و لو بشكل غير مباشر عما جرى البارحة و إلا خسر كل شئ كان يسعى لديه من أجله كالشراكة في مصنع الأخشاب الخاص في منطقة سان نيكولاس بشمال العاصمة حتى ينقذه من الإفلاس ، فضلا عن المكاسب التي سيجنيها من وراء تحالفه معه بعدما لم يستفد شيئا من تقاعده من وظيفته السابقة في السلك الدبلوماسي ..... و غيرها من الأمور المسترسلة في مخيلته قبل أن يقذف بها خارج أسوار قصره الذهبية التي عكست نور شمس الصباح الساطع على وجهه المتوتر لتجعله يستفيق من أحلامه العابثة و همومه الخانقة لحظة دخوله إلى هناك و يجابه أمامه بيدرو المتفاجئ بحضوره :

(صباح الخير بيدرو ،،،،،،،، ص – ص – صباح الخير يا سينيور باولو ، هل من خدمة أسديها لك ؟ ،،،،،،، نعم ، أريد مقابلة سيدك الآن و محادثته في موضوع هام و ضروري ،،،،،،،،،، سيدي الدون مشغول الآن ، لقد ذهب إلى منزل السيد بابلو سيرفانتس منذ الصباح الباكر ،،،،،،، فهمت ، إذن سآتيه في وقت آخر ،،،،،،، لكنه سيأتي إلى هنا بعد نصف ساعة و لن يتأخر ،،،،،،، ويحك يا بيدرو ! في البداية تقول أنه لن يأتي ، و الآن تخبرني بأنه سيعود بسرعة إلى هنا ، ماذا دهاك يا فتي ؟!! لما لا تعطني الخبر جملة و تفصيلا ،،،،،،،، سامحني يا سينيور ، ظهورك أمامي فجأة

هكذا أربكني ، فلم أدر ما أصنع حيال ذلك ، أعذرني ،،،،،،،،،، حسنا حسنا ، سأنتظره في بهو الضيوف ،،،،،، تفضل سيدي ، تفضل)

أثارت تصرفات بيدرو و كلامه شكوك السنيور باولو و لاسيما أن الأول يعرف الأخير معرفة تامة و يرحب بوجوده سواء في حال حضور الدون أم غيابه دون تردد أو خوف مما أوحى له ذلك بأن في الحكاية إن ، ما إن جلس في بهو الضيوف الواسع و الممرد بالرخام الايطالي و اللوحات التشكيلية لأهم فناني عصر النهضة و القرن التاسع عشر و لاسيما الإيطاليين منهم كما هي عادة الدون للتعبير عن جذوره التي لم تغيرها البيئة التي نشأ فيها البتة حتى عادت هواجسه المعتادة تحوم حوله دون توقف و ما زاد من وتيرتها الخروج المفاجئ للدون من قصره منذ الصباح الباكر مصطحبا كارلوس معه حيث لم يجد له أي أثر هنا ، و مرت ساعة بأكملها دون أن يأتي أحد منهما فإنتابته موجة من القلق و التوتر سرت أصابعه و قدميه اللائي لم تتوقف عن الإهتزاز المتواصل قبل أن تتجمدا من الحركة لحظة وقع أقدام سريعة تصعد شيئا فشيئا عبر السلالم و تكاد تقترب من البهو بخطى شبه بطيئة أثارت الفزع لدى السنيور باولو من القادمين نحوه ما لبث أن تبخر فجأة عندما علم إنهم الدون و تابعاه بيدرو و كارلوس ، فإنفرجت أساريره و بدأ يشد خطاه نحوه للقائه قبل أن يتوقف حينما سمع على غفلة حوار إحتدم بين ثلاثتهم و بأصوات خافتة :

(ما الذي أتى بهذا الرجل إلى هنا ؟ ،،،،،،،،،، لا أعرف يا سيدي ،،،،،،،،، لا تعرف ؟! إذن ما الذي تعرفه يا بيدرو ؟!! ألم أقل لك يا هذا بأنه في حال مجيء ذلك الرجل إلى هنا بأن تتصل بي قبل أن تدخله للقصر ؟!!! ،،،،،،،،، بلى سيدي الدون لكنه قدم إلى هنا بغتة و دون مقدمات مما أربكني حضوره المفاجئ و لم أعد أستطع التفكير أو حتى التصرف السريع حيال ذلك ،،،،،،،،،،،،،، فهمت الآن ، غريب ! ما الذي آتى به في هذه الساعة من الصباح الباكر و من

دون أن يتصل بي أو يحدد معي ميعادا مناسبا لإستقباله ؟ ،،،،،،،،،،، سيدي ، ألمجيئه إلى هنا له علاقة بما حدث لإبنته بيانكا البارحة ، يبدو أنه لم يصدق روايتي التي تلوتها أمامه و بدأ يشك بها و لاسيما أنه رآها مع رجل غريب ،،،،،،،،، لا تكن سخيفا ! إنه يعرف بأنك تابعي منذ زمن ، يبدو أنك لم تقنعه بروايتك جيدا فبدا الشك يتسرب ،،،،،،،،،، مستحيل يا سيدي لقد نفذت أوامرك بحذافيرها و أخبرته بأنها تعرضت لهجوم من لص مجهول إقتحم منزلهم في منتصف الليل و أنا أنقذتها من براثنه و لم يعرف أني وجدتها في القصر و هي تراقب شحن البضائع البيضاء إلى السيد دييغو في ..... ،،،،،،،،، أصمت يا كارلوس ، لا تتكلم بهذه الحماقة حتى لا يسمعنا الرجل و ينكشف أمرنا ،،،،،،،،،، إنه بعيد عنا يا بيدرو و لا يفصل بيننا عنه سوى رتل من السلالم الأرضية و هو في الطابق العلوي ،،،،،،،،،، إذن لما أنت خائف ؟!! ،،،،،،، لأنه يا سيدي يخشى إكتشاف السينيور الحقيقة و هذا غير صحيح لأنه إبتلع الطعم ،،،،،،،، أو أنه إستجوب إبنته و إنتزع الحقيقة من فمها دون رحمة ،،،،،، يا إلهي لقد إنكشفنا ،،،،،، أصمت أيها الغبي ، هذا مستحيل لن يفعل ذلك البتة ، لسبب بسيط للغاية حيث أنه لا يجرؤ على الشك بي أو برجالي و إلا محوته و عائلته من وجه الكرة الأرضية بإشارة مني ، لا تخشى شيئا ، مفهوم كارلوس ؟!! ،،،،،،،، مفهوم يا سيدي ،،،،،، حسنا ، أنا سأقابله الآن ، و أنتما ستبقيان هنا ريثما أنهي حديثي معه ،،،،،،،،، حسنا سيدي)

و ما أن سمع وقع خطوات الدون ترتفع إلى مسامعه حتى عاد إلى مكانه بسرعة مستقبلا إياه و كان شيئا لم يحدث البتة :

(صباح الخير سينيور باولو ،،،،،،،، صباح الخير سيدي الدون ،،،،،،،، تفضل بالجلوس (يجلس) سمعت أنك تريدني في موضوع هام يخص تجارتنا ، تفضل ، كلي آذان صاغية ،،،،،، كنت ارجو

منك أن تؤجل موضوع تسليم نصيبك في الأرباح و تمهلني أسبوعا واحدا فقط لأرد عليك حتى أفيك حقك لأنك كما تعلم أن سوق الأخشاب و منتجاتها المحلي هذه الأيام لا يزال يشهد تراجعا حادا في الإقبال عليه حتى من خارج الأرجنتين و لم أستطع حتى هذه اللحظة أن أصدر سوى ١٠% من بضائعنا إلى فرنسا و إيطاليا و البرازيل .... ،،،،،،،،،، أكل هذه المقدمات من أجل تأجيل إعطائي حسابا بنصيبي من الأرباح لهذه الشهر ؟ يا رجل أرعبتني ، كنت أعتقد أنك تريدني في أمر خطير يتعلق بحريق مصنعنا للأخشاب لا سمح الله ،،،،،،،، لا لا سيدي الدون المصنع بخير و تسير أموره على ما يرام كل ما في الأمر أنه حدث فتور في الإنتاج لا أكثر ،،،،،،،،، لا عليك يا سينيور باولو ، خذ وقتك في هذا الموضوع ما إن تتحسن الأوضاع في السوق أعطني نصيبي من الأرباح ، فلست مستعجلا ،،،،،،،، شكرا يا سيدي الدون (ينهض و يحاول تقبيل يده فيسحبها بسرعة) ،،،،،،،، على الرحب و السعة ، إذا أردت أية مساعدة فأنا جاهز ،،،،،،،، حسنا سيدي الدون ، إلى اللقاء ،،،،،، إجلس يا سينيور ، فمازال الوقت مبكرا ، دعنا نتناول كوبين من الشاي ،،،،،،،،، في وقت آخر سيدي الدون ، أستودعك الله ،،،،،،،، في أمان الله)

ما إن غادر قصره الكبير حتى خرج منه بشوشا و سعيدا منفرج السريرة إلى حد لا يوصف توقعه ليس لأنه سوى مشكلة الأرباح معه فحسب بل عرف على غفلة أسرارا و لو متواضعة تجعله يسبر غور هذا الرجل الغارق في غموضه إلى أخمص قدميه .

(٦)

و ما إن عاد إلى منزله و السعادة تغمره بكافة جوانحه دون أن ينتبه للعربات المارة أمامه المسرعة نحو حتفها دون مبالاة من سائقيها أو حتى يهتم لهم البتة يهتز طربا و رقصا أمام دهشة زوجته و إبنته و حتى حارس القصر الغارقين لحظتها في إستغرابهم من تصرفاته تلك و ما زاد في ذلك أنه رقص مع باوليتا كثيرا دون أن يأبه لأسئلتها المتواصلة :

(باولو ! باولو ! ماذا دهاك يا عزيزي ؟!! لما تتصرف بغرابة هكذا ؟!!! ألا تخجل من نفسك يا رجل ؟!!!!! لقد بات الناس الآن يسخرون منا ،،،،،،،،،،،، (يمسك بها) دعك من الناس في مدينتنا يا باوليتا ، أنهم لن ينفعونا بشئ كما فعل بي الدون اليوم ، صدقيني ،،،،،،،،،، هـ هـ هل قابلت الدون ماركو ؟ ،،،،،،،، بالطبع ، و أخبرته بما يجول في خاطري و صدري معا ،،،،،،، على ما يبدو أنك أخبرته بما دار بينك و إبنتك حول البارحة ، ألم أنبهك يا عزيزي بألا تتهور ..... ،،،،،،،، لا تخافي ، لم أخبره بذلك ، إطمئني ، لكنك ألهيتيني عن البشرى التي كنت سأزفها إليك ،،،،،،،،،،،، بشرى ! و ما هي تلك البشرى ؟!!! ،،،،،،،، لن أقلها ألا بحضور إبنتي ..... بيانكا ، بيانكا ، هلمي إلي يا إبنتي ،،،،،،،، (تنزل على إثر نداء أبيها) ما الأمر يا أبي ؟ هل هناك خطب ما ؟ ،،،،،،،، (يحتضنهما) أبشري يا باوليتا ، أبشري يا بيانكا ، مشاكلي المالية مع الدون تمت تسويتها ،،،،،،،، (باوليتا) الحمد لله و أخيرا نجونا ،،،،،،،، لم أكمل بقية البشرى بعد ،،،،،،،،،،، و ما هي يا عزيزي ؟ ،،،،،،،، بيانكا ، ستتزوجين الدون ماركو ،،،،،،،،، حقا يا أبي ؟ ،،،،،،،، نعم يا إبنتي ،،،،،،،، يبدو يا باولو أن البشرى ذهبت بعقلك إلى غير رجعة دون أن تدري ، ما هذا الكلام الذي تقوله ؟! الدون ماركو يتزوج إبنتنا ؟!! لا بد أنك تمزح ،،،،،،،، أنا لا أمزح يا إمرأة ، الدون ماركو طلب يدها مني و أنا وافقت ،،،،،،،،،،، حقا

عزيزي ؟! (يؤمي برأسه المنفرج الأسارير بالموافقة فتحتضنه بغتة و بقوة من شدة الفرح) و روح سيدتنا العذراء أنه أعظم خبر سمعته في حياتي ،،،،،،، و أنا كذلك يا أماه ، أخيرا تحقق حلما من أحلامي الوردية ، كدت أصاب باليأس من عدم تحقيقه ، أشكرك يا أبي (تحتضنه) أنت أعظم أب في الوجود قلما المرء يجد مثيلا له ،،،،،،، لا تقولي هذا يا إبنتي ، أنا من أجلك أفعل المستحيل ..... هيرنان ، هيرنان ،،،،،،،،، لبيك سيدي ،،،،،،،،،،، جهز المائدة بأطايب الطعام و الشراب ، نريد أن نحتفل بهذه المناسبة السعيدة دون توقف ،،،،،،، حاضر سيدي ،،،،،،،،، هيا بنا)

لم تكن باوليتا تعلم بما وراء فرحته الغامرة تلك ، فضلا عن السبب الذي دفع الدون ماركو إلى الموافقة على طلب إبنتهم بالزواج بهذه السرعة و لاسيما أنه هناك غيرها من بنات جنسها أجمل و أغنى و أرفع نسبا منها دون أن تدري بأن باولو إمتلك الوسيلة التي ستجعل الأول يوافق على طلباته بلا تردد ، و بالنسبة للدون الغافل حينها عما يجري حوله و المنفعل بحدة خلال المكالمة التي كان يجريها على الهاتف و هو يحاور دييغو و إنعكست على سيجارته الضخمة المتآكلة رويدا من شدة النفخ المتواصل عليها :

ماذا تعني بأنك لم توصلها إلى الدون ؟! ألم تصل إلى غلوريا[٩] كما هو متفق عليه ؟!!! عدنا إلى المراوغة مرة أخرى ، لقد أعددتها كما يجب و سارت الأمور على ما يرام ، ما الذي جرى إذن ؟!! (ينخطف وجهه) ماذا تقول بحق الجحيم ؟!!! السفينة غرفت في عرض البحر بمن فيها ؟!!! بعدما توقفت في ميناء بلنسية للتزود بالوقود و الطعام ثم إنطلقت إلى هناك ؟!!!!! تقول نجوت بصعوبة و أنجدتك أحدى قوارب الصيادين بمسينيا ؟؟!!! و ماذا يفيدني نجاتك من الموت أيها الأحمق و كل ما قمت ذهب سدى بسببك ؟ (يقفل الهاتف بغضب) ،،،،،،،، (يأتيه بيدرو و هو

[٩] غلوريا : مدينة صغيرة ساحلية تقع جنوب غرب محافظة نابولي الايطالية (المؤلف) .

على هذه الحالة) ما الأمر سيدي الدون ؟ هل شئ ما عكر صفوك ؟ ،،،،،،،، مصيبة يا بيدرو ، بل قل كارثة ماحقة ،،،،،،،، ألهذا الدرجة الأمر خطير يا سيدي ؟ ،،،،،،،، بل جد خطير ، لقد خسرنا كل شئ ،،،،،،،، خسرنا كل شئ ؟ ،،،،،،،، ما بك يا بيدرو لا تفهم ؟ لقد خسرنا البضاعة ،،،،،،،، التي شحنها قبل أسبوعين ،،،،،،،، و هل هناك بضاعة غيرها ؟ ،،،،،،،، يا إلهي ! ، كيف ؟ ،،،،،،،،، ضاعت بفضل دييغو الذي إستلمها مننا ذلك الغبي الأحمق و أين ؟ على مسافة فرسخين من نابولي ، أي أنه لم يبق إلا القليل و وصل ، لكن إصراره على إستئجار هذا البحار الغبي العديم الخبرة ليكون قبطانا على السفينة هو من جعلنا نخسر كل شيء ، و هاك النتيجة خسرنا البضاعة بمنتهى السهولة ، أنا لا أعرف لما إستعان الدون الكبير به ؟ لقد فقدنا كل شئ بسببه ،،،،،،،،،،،،،، و هذا معناه أن الجميع سيعلم بسر تجارتنا تلك و ينكشف أمرنا و نصبح في موقف صعب يا سيدي ..... ،،،،،،،، أنا لا يهمني الناس أيها الغبي لأنني سأسكتهم بقوتي و نفوذي ، كل ما يخيفني الآن أنني خسرت نصف ثروتي لقاء هذه الصفقة المهمة بسبب تصرفات صبيانية لدييغو و لا أعرف كيف سأعوضها أو أقوي نفوذي لدى مسئولين و أجهزة الدولة سواء في باهيا بلانكا أم في العاصمة بغيرها .

لم يتوقف عن التذمر و الصراخ لحظة واحدة و ظل يصب جام غضبه يمينا و يسارا حتى في وجه بيدرو الذي بدأت ترتسم على محياه إبتسامة غامضة تخفي في طياتها نبرة شماتة صامتة سرعان ما زالت بعدما أمره الأول بالإنصراف فما لبث أن ذهب من فوره إلى صديقه كارلوس القابع في المطبخ السفلي يشرب القهوة التي أعدته له زوجته مارتينا الخادمة الصغيرة و هي القهوة الرابعة عشر في صباح هذا اليوم دون أن تكف عيناه و يتوقف لسانه عن مغازلتها بأعذب الكلمات و

النظرات الشبقية نحو وجهها الغجري الصبوح قبل أن يأتي مقدم بيدرو على حين غرة و يفسد هذا المشهد العاطفي الممطوط كعادته :

العفو يا بيدرو، أستأذنكما ، أنا في الحديقة يا عزيزي (تتركهما لوحدهما) ،،،،،،، سأتبعك حالا يا عزيزتي ..... ماذا دهاك يا بيدرو بحق الجحيم ؟ هل جننت ؟ أهكذا تقتحم خلوتنا و كلانا في قمة الإنسجام التام بيننا ؟ ،،،،،،، عن أي إنسجام تتحدث أيها الأحمق كارلوس و هي لم تنظر إلى وجهك أصلا منذ الصباح الباكر (تملأ كارلوس الدهشة عيناه) ..... دعك منها الآن ستقابلها فيما بعد ، عندي لك خبرا بمليون بيزو ! ،،،،،،،،، حقا ؟! ما هو ؟!! ،،،،،،، صديقنا القديم وقع في الفخ أخيرا ، ها ها ها ،،،،،،،، صديقنا القديم ، أي صديق ؟ ،،،،،،، يا إلهي ، ماذا جرى لك ؟ هل نسيت ؟! الدون ماركو ؟!!! ،،،،،،، من الدون ماركو هذا ؟!!! يا المصيبة ؟!! يبدو أن وجه مارتينا أذهب عقلك بالمرة ، الذي نعمل تحت إمرته الآن أيها الغبي الأرعن ،،،،،،،،، آه تذكرت ، الدون ماركو ، هل طلبنا الآن ؟!!! ،،،،،،، ما الذي كنت أقوله لك من قبل ؟ أقول لك أن صديقنا القديم وقع الفخ أخيرا ! ،،،،،،،،، وقع في الفخ ؟! ماذا تقصد ؟ و كيف ؟ ،،،،،،،، أتذكر صفقة الفتيات التي قمنا بشحنهن إلى نابولي من هنا ؟ ،،،،،،،، نعم أتذكرها ، هل وصلت إلى هناك بأمان ؟ ،،،،،،،،، و هذه هي المفاجأة ، لقد غرقت في عرض البحر ،،،،،،،، ماذا تقول ؟ غرقت ؟ ،،،،،،،، و خسر الدون نصف ما يملك من جرائها ، ها ها ها ،،،،،،،، ها ها ها ؟ سعيد لأن الدون خسر كل شئ أم لأن كلينا تورط في هذه الصفقة إلى أخمص قدمينا ؟ ،،،،،،،،،،،، متورطين ؟! ماذا تقصد ؟!!)

إنتابته الدهشة و هو يخاطب كارلوس دون أن يدرك فيما بعد صحة كلامه ، فمهما خسر الدون الكثير من أمواله فستكون أقل مما سيحدث لهما عندما يصبحان كبشي الفداء لها في حال إذا ما

أميط اللثام عن سرها الخطير ، فظل بيدرو على كرسيه فاغر الفم دون أن ينطق بحرف و لو حتى لصديقه كارلوس الذي يشعر بالقلق يسري في جسده حيال صديقه .

و في غضون ذلك ، يأتي السينيور باولو علي حين غرة كما أضحت عادته هذا الأسبوع إلى القصر و لكن هذه المرة و الدون موجود فيه ليجده في بهو الضيوف يتآكل أمامه من شدة التوتر و القلق :

ما الأمر يا سيدي الدون ؟ هل هناك خطب ما ؟ ،،،،،، لا لا شئ سينيور باولو ، كل ما في الأمر تذكرت والدتي الراحلة فحسب ،،،،،،، رحمة الله عليها ،،،،،، رحمة الله عليها ، تفضل بالجلوس ،،،،،، شكرا ،،،،،،، مارتينا ، مارتينا (يصرخ) مارتينا ،،،،،،،،، (تأتي بسرعة) آمرك سيدي الدون ،،،،،،،، أين كنت أيتها الحمقاء ؟ لما لا تجيبين علي ؟ ،،،،،،، أنا آسف يا سيدي ، لقد كنت مشغولة في المطبخ و .... ،،،،،، كفي عن الثرثرة ، و أحضري للسينيور باولو قهوته المعتادة ،،،،،،، حاضر سيدي الدون (تنصرف) ،،،،،،، أهلا و سهلا بك سينيور باولو ،،،،،،،،، أراك أتيت مبكرا قبل موعد الدفع و إستلام نصيبي من الأرباح ، فلما الإستعجال ؟ ،،،،،،،، اعرف ذلك يا سيدي الدون ، لكني أتيت من أجل موضوع آخر ،،،،،،، موضوع آخر ؟ أي موضوع ؟ ،،،،،،،، موضوع يتعلق بإبنتي ،،،،،،،، و ما شأني بها ؟ ،،،،،،،، بل لك علاقة بها و علاقة وثيقة غير قابلة للفصام و لاسيما ستصبحان عما قريب يدا واحدة ،،،،،،،،،، يد واحدة ؟!! ..... سينيور باولو ، هلا أوضحت لي ماذا تقصده من كلامك رجاء ؟!!!! أنا لم أفهم شيئا ؟!!!! أقصد بيد واحدة أي بعد أن تتزوجا من بعضكما و تصبحا في بيت واحد ..... ،،،،،،،،،،، أتزوجها ؟ هل جننت يا هذا ؟ ،،،،،،،، جننت ؟ أتصف زواج إبنتي منك بالجنون ؟!! ،،،،،،، بل الجنون المطبق بحد ذاته لدرجة أنك لم تعد تعرف حدودك و تجاوزت قواعد البروتوكول القائم بيننا ،،،،،،،،، و

هل عندما أطلب مصاهرتك و أن تكون زوج إبنتي قد تجاوزت حدودي ؟!! ألم تقل أنك تحبها حبا جما و تتمنى أن تعيش معها في بيت واحد البارحة سيدي الدون ؟!! ،،،،،،،،،، حقا ؟ و ألمجرد قلت هذا حتى صدقت فعلا بأني سأتزوجها في الحال ؟ من أنت حتى تكون إبنتك هي زوجة المستقبل ؟ أنت مجرد دبلوماسي متقاعد وضيع الحال إنحدرت من أسرة حقيرة كإبنتك و التي كانت تعتاش من جمع القمامة في روما قبل مجيئها إلى هنا و لولاي و أموالي و نفوذي لما أصبحت من أعيان باهيا بلانكا و أثريائها يا هذا ،،،،،،،،،،،،، أنا من أسرة حقيرة ؟ إلى هنا و يكفي ، لن أسمح لك بإهانة عائلتي و إبنتي مهما كان الثمن ،،،،،، ها ها ها ، حقا ؟! و ماذا ستفعل إذن ؟ ،،،،،، من ناحية سأفعل سأفعل الكثير و الذي لم يخطر على بالك البتة و تسقطك من عرشك الواهن ،،،،،،، كيف تتجرأ على مخاطبتي بهذه الطريقة أيها الوضيع الحشرة .... ،،،،،، أنا لست حشرة (يصرخ رافعا سبابته صوب وجه الدون) أنا السينيور باولو فيسكونتي وكيل وزارة الخارجية الأرجنتينية الملحق الثقافي بسفارتنا في النمسا و الحاصل على وسام الاستحقاق الوطني من الدرجة الأولى من رئاسة الجمهورية و أستطيع بموجب ما ذكرت أن أمحوك بجرة قلم ، سأخبر الجميع عن خطفك للفتيات المنتميات إلى الطبقة الأرستقراطية في باهيا بلانكا و شحنهن إلى نابولي لدى تجار البضاعة البيضاء حيث يعملن هناك بنات هوى في ملاهيها و مواخيرها الليلية ..... ،،،،،،،،، أية بضاعة بيضاء هذه الذي تتحدث عنها أيها المدعي الخرف ؟! .... ،،،،،،،، تجارة الرقيق الأبيض التي أنت تمثلها هنا نيابة عن الدون الكبير في نابولي التي بدأتها منذ أقدمت على بث حفلاتك الغرائبية في أروقة قصرك الفخم و تختطفهن تحت ستار الظلمة مدعيا أن الدب الأحمر إلتهمهن الواحدة تلو الأخرى و الناس يصدقون الأسطورة التي إختلقتها و والدتك حيث لا هم لهم سوى تحقيق مصالحهم معك و حسب ،،،،،، أصمت يا حقير

! ..... ،،،،،،،، لن أصمت ، و سأخبر بالجميع بكل ما إرتكبته طيلة هذا السنين و عندي الكثير من الأدلة التي تثبت ذلك صحة ما أقوله و من بينها ما قاله صديقك إميليو ريتيفيز و دييغو الذي كان ضيفك وقت العملية ،،،،،،،،، دييغو ؟ (يهمس لنفسه) تبا لك يا دييغو الغبي ، دائما تثير الشبهات بتصرفاتك الحمقاء ،،،،،،،،، و سجلات مرافئ باهيا بلانكا عبر أصدقائي الذين يعملون هناك ، فما رأيك ؟ ،،،،،،،،،،، إسمع يا هذا ، لا أحد مثلك يستطيع أن يقضي على نفوذي و قوتي حتى و لو كان لديك جيشا من الأدلة الدامغة ، لأن بإشارة مني أستطيع أن أزيلك من الوجود ،،،،،،،،،،، أعرف ذلك ، لكني الذي أعرفه أن هذا كان من الماضي و نحن في عهد الرئيس بارتيفو ديلورينزي الذي يكره الإقطاعيين أمثالك و الخونة الذين يخونون وطنهم الأرجنتين لصالح وطنهم الأصلي إيطاليا و لاسيما الخارجين على الحكومة المركزية في كلا البلدين على الرغم من أنك سليل الرومان ، و بإتهامك بالخيانة العظمي مثبتا بالأدلة الدامغة التي تؤكد صحته كل هذا العز و النفوذ و الجبروت الذي تنعم بهم سيختفي في غمضة عين ،،،،،،،، (يصرخ و يمسك بذراع باولو) أخرج ، أخرج أيها الحقير الإمعة يا عديم الفائدة و إلا قتلتك ، (ينادي) بيدرو ، كارلوس ،،،،،،،، (يأتيان بسرعة البرق و هما يلهثان) نعم سيدي الدون ،،،،،،،، خذوا هذا الحقير و ألقوا به خارج قصري الآن (مستغربان) ماذا تنتظران أيها الغبيان ؟! نفذوا ما أمرتكم به ، هيا ،،،،،،، آمرك سيدي الدون ،،،،،،،، (يجران السينيور باولو بالقوة إلى خارج القصر و هو يصرخ) سوف تدفع ثمن أفعالك يا دون ماركو قريبا ، و ساعتها ستندم على كل شئ إرتكبته في حياتك الحقيرة أيها الوضيع السافل ،،،،،،، أصمت يا هذا ، أصمت و إلا ضربتك في صدغك ،،،،،،،، (ما إن يخرجوا ثلاثتهم من القصر حتى يجلس الدون من شدة التوتر و الغضب) تبا لك أيها الحقير .

لم تنس بيانكا هذا الموقف الساخن المغروس في مخيلتها بعد مرور ثلاثة أشهر على مقتل والدها في سان بيدرو على يد مجهول بالطريقة الإيطالية المعروفة و المتمثلة بالقتل السريع فالدفن السريع و الإخفاء السريع في نفس اليوم و دموعها لم تتوقف عن التدفق الهادئ هدوء يسبق عاصفة صراخها الحاد التي عصفت بالسكون المحيط بها في أرجاء غرفتها البيضاء بقصر الدون بعد زواجها السريع المثير للإرتياب لدى الأهل و الأصدقاء منه بعد أسبوعين على تشييع جنازة والدها المتشحة بالظلام الدامس برغبتها المطلقة في الإختلاء بنفسها ، و لاسيما أن هذا الموقف ضمن سلسلة من الحقائق التي رواها لها بيدرو عندما زارها البارحة سرا في بيت عمها بريفر بلات[١٠] و من بينها تورط الدون ماركو في إغتيال والدها و هذا ما زاد في سوء حالتها إلى هذا الحد و لاسيما أن الأول ساهم في تكاليف جنازة والد الثانية و رعاها و والدتها خلال أزمتهما النفسية و المالية و نظرة الناس القاسية لهم بعدما أفلسوا و أضحوا قاب قوسين أو أدنى من إلتحاف قارعة الطريق مأوى لهم ، و أن كانت لم تمنعها من سبر غوره و الغوص في أعماقه الدفينة قدم عائلته العريقة الغريبة الأطوار على هذه الأرض الواقعة أقصى جنوب العالم الجديد من نظيرتها في أقصى شمال العالم القديم .

[١٠] إسم مدينة تقع جنوب غرب العاصمة بيونس آيرس و أتى منها أشهر الأندية الرياضية في الأرجنتين بأسرها (المؤلف) .

(٧)

بدا الليل يسدل ستاره ببطء على أرجاء المعمورة في ذلك اليوم من شهر يونيو خلال هذه الصيف القائظ إلى حد الجنون على غير عادته دون أن تمنع الحاضرين من الإستمتاع بأجواء الحفلة و مظاهرها المرحة و المثيرة في قصره المضيء بحيويتهم و إبتساماتهم كالمعتاد و إن خفت حدتها بعد ظهور شخص آخر يقف بمحاذاته و يساعده في القيام بواجب الضيافة و الإستقبال و الوفادة السخية لهم إلا و هي زوجته بيانكا فيسكونتي أميرة الجبل كما وصفها خطيبها السابق جورجيو بارلوما قبيل مصرعه في غرق سفينة تجارية محملة بالقطن الخام متجه إلى كندا عام ١٨٧٠م عندما تأملها تلبس فستانا ناصع البياض ذات يوم مثلج في جبل سان بيدرو من نفس العام ، لم تتوقف العيون الغاضبة المغلفة بإبتسامة زائفة تخدع الناظر إليها و لاسيما من بنات جنسها اللائي لم يصدقن ما حدث و كيف لساحرهن الفاتن الدون ماركو أن يقرر على حين غرة التخلي عن حريته المطلقة و الوقوع في فخ الزواج من فتاة صغيرة السن أقل جمالا و مكانة منهن دون أن يعرفن السبب الحقيقي وراء فحوى الأمر و عن قذف سهامهن الغادرة و الحاقدة و الحاسدة لها لحظة نزولها عبر السلالم الذهبية المفعمة ببريقها الأخاذ و ضوئها الساطع الخال من الزيف الموجود لدى من يملكه سائرة أمام الحضور بخطى ثابتة و بأبهى حلتها و زينتها الخلابة و بنورها اللامع الذي يشع من فستانها الخمري و أعمى أبصارهن و إرتدت سهامهن الهوجاء إلى صدورهن المريضة غير مأسوف عليهن رغم أنه كان يخفي في طياته جسدا ضامرا ضئيلا يلتهمه الشك و القلق و الحزن من قمة رأسها إلى أخمص قدميها حتى تلك اللحظة غير مقتنعة بالوضع المفاجئ الذي آلت إليه تمثلت بمقتل والدها و حجز أمواله و مصنعه من قبل زوجها الذي بدوره تزوجها بسرعة البرق دون أن يكلف خاطره عناء التعرف الدقيق عليها من كافة النواحي و لو بشكل كاف حتى .

(مساء الخير يا أميرتي الجبلية ،،،،،،،،، مساء الخير يا سيدي الدون ،،،،،،،،، لا داعي لأن تناديني بلقب الدون بتاتا ، لقد أصبحت زوجك الآن ، فإنزعي الكلفة التي بيننا و ناديني ماركو فحسب ،،،،،،،، حاشى لله أناديك هكذا يا سيدي الدون ،،،،،،،، يا إلهي ، عدت مجددا إلى مناداتي بسيدي الدون ، ماذا أخبرتك قبل قليل ؟ ناديني ماركو و لا داعي للقب الدون ، مفهوم ؟ ،،،،،، مفهوم يا سيدي الدون .... أقصد عزيزي ماركو ،،،،،،،،،، الله ، جميلة عبارة عزيزي ماركو التي تلوتها لتوك (يقبلها) تفضلوا أيها السادة إلى مائدة الطعام رجاء) .

لم تكن تعرف ما الذي تقوله سوى عبارات منمقة كاذبة لا تعكس حالة عقلها المشتت الذي تختلجه مشاعر مضطربة متضاربة حياله من حب و كره و من عطف و قسوة و من يقين و شك أبقتها حائرة إلى حد الإغماء و الدوران في حلقة مفرغة لم يجعلها تحسم موقفها منه ، فلم تزل مفتونة بوسامته و لباقته الفائقة رغم شكوكها الحادة حوله و التي بدأت تساورها إثر أسبوعين على وفاة والدها المفاجئة تلك و لاسيما على اثر زواجه السريع منها دون عرس حافل بالحضور من كل حدب و صوب الذي تم تحت طقوس غامضة أشبه بالسرية ، إضافة إلى النساء اللائي يقدمن قرابين للدب الأحمر بعد أن يمتددن للدقائق على فراش الدون المطعم بالذهب و الماس و يأخذ حاجته منهن متجهات إلى السرداب الأرضي للقصر بعد إنتهاء الحفلة المقامة في الدور العلوي مباشرة و هذا الذي جعلها تغرق في بحر من الشكوك أكثر فأكثر و لاسيما أن زوجها إستمر على عادته تلك حتى بعد زواجه و دون إعتراض من أحد .

ظلت تبتسم للحضور بإبتسامة بلهاء ساذجة يسودها الزيف و التكلف لتداري موقفها المحرج منهم الغير مصدقين لما حدث ، و سرعان ما أحست بالتعب و أنهكها الإرهاق من كثرة الوقوف المتكرر للترحيب بالضيوف و مساعدتهم حتى طلبت الإذن من زوجها بالصعود إلى غرفتها لكي تستريح من

عناء الحفلة و مشكلاتها اليومية التي تكلفه أموالا طائلة تفوق ما يبذره الناس في صالات القمار الكبرى لتنام نوما خفيفا إستغرق نصف ساعة و ما لبثت أن إستيقظت سريعا ذئبا يدعي النوم حتى ينقض على فريسته الغافلة تحت جنح الظلام لتكتشف أن زوجها لم يكن نائما بجوارها رغم خلو القصر من الضيوف و غوغائيتهم المزعجة إلى حد الجنون حيث نزلت بهدوء متسللة عبر السلالم الخلفية للبهو الرئيسي الغارق في خلوه من الحضور و أصواتهم المزعجة كأن على رأسه الطير ، حتى الفتيات اللائي يحضرن لليلتهن الموعودة في تلك الساعة لم تجد لهن أي أثر فيه ، فإستمرت في التسلل و بخطو خفيف لقدميها القصيرتين رغم إنتعالها كعب شبه عالي يرفع مقامهما المتدني إلى أعلى مستوى بمعية فستانها المبهرج الذي يطوق جسدها الضئيل و يعيق حركتها نوعا ما حتى لا تلفت نظره بأنها تراقبه ليل نهار لتجد في طريقها المتشح بسواد الليل من شدة الظلام الدامس و الملبد بحيرتها و توترها القاتل دون أن يعينها و لو بشمعة صغيرة تبدد مخاوفها تلك بابا خشبيا ضخما ثلاثة أمثال نظرائه في القصر بكثير لا يميزه عنهم سوى لوحة ذهبية مكتوب عليها الرقم سبعة مع حرفي **h** و **g** دون أن تعرف مغزاه البتة حيث لم يكن لديها الرغبة الملحة في سبر غوره أساسا جراء إنشغالها الحثيث بفتحه أو بالأحرى الوصول إلى مزلاجه الفضي الذي كان يفوقها إرتفاعا ، و ما إن إستطاعت الإمساك بتلابيبه الملساء حتى فتح الباب فجأة و تعثرت بثوبها العريض و تدحرجت رغما عنها على درجات سلم قادها إلى سرداب أرضي مظلم لا نهاية له رافعة عقيرتها بالصراخ العالي المتقطع عل أحدا من في القصر يسمعها بمن فيهم زوجها طالبة المساعدة منهم و لكن دون جدوى ، و كادت رأسها أن ينفجر من شدة الإرتطام المتواصل على حوافه الخشنة قبل أن تسقط على أرضية السرداب المعبدة بالحجر الحبش[١١] و تستفيق شيئا فشيئا و تسترد وعيها ببطء شديد تحت ضوء المشاعل التي تنير الرواق الوحيد المضاء في هذا السرداب الموحش لتسير

[١١] نوع من الأحجار النارية و يعرف أيضا بالبازلت (المؤلف) .

بهدوء بين جوانحه الرقيقة فإذا بها تجد رجالا ضخاما يرتدون ثيابا متنوعة تدل على وظائفهم و طبقاتهم الإجتماعية من ضباط شرطة و عمال مناجم و لصوص و نباشي قبور و نبلاء و زبالين ، و ما زاد من إستغرابها أكثر أن أغلبهم ليسوا من باهيا بلانكا أن لم نقل من الأرجنتين قاطبة حيث كانوا يتكلمون بلغات مختلفة لم تكن لغة البلاد الرسمية محشورة وسط ضجيجهم اللغوي[١٢] ، و ما أن توارت عن أنظارهم و الإختباء عنهم في أحد زوايا الرواق المعتمة دون أن يضبطها أحد حتى تفاجأت برؤيتهم و هم يحملون فتيات نائمات في سن الورود مثلها مقيدات إلى ظهورهن زرافات و وحدانا من الجهة الأخرى منه ، فأسرعت الخطو نحوهم لتقف هنيهة في الغرفة التي خرجوا منها لتكتشف الحقيقة المذهلة و تجد ثلاث منهن ممددات على أرائك مصنوعة من القش و ما أن إقتربت منهن فوجدتهن لم يمسسهن بشر بمن فيهم الدون ماركو و في أتم صحة و قد قيدت رسغهن بأسرتهن دون أن تبدين أية حركة ..... لكنها تخرج من هناك و تحاول الهرب قبل أن تتوقف لبرهة لحظة رؤيتها الغرفة المجاورة لهن مضيئة حيث لا يزال بابها مواربا ، فبدأت بالولوج إليه بهدوء تام لتجده محاطا بالتمائم و الثياب التنكرية و معظمها تمثل حيوانات تعيش في البراري و الأدغال الأرجنتينية و من بينها ثوب الدب الأحمر المعلق على مشذب خاص ملتصق بحائط الغرفة الشبيهة بكهف مدفون وسط الصخور لم يتغير شيئا من ملامحه منذ عقود إن لم نقل قرون خلت ما جعل وجهها الشاحب اللون يعتريه الرعب و الخوف من شدة الدهشة و المفاجأة ، و حينما إقتربت منه و لمست بأناملها المرهفة قماشه الخشن حتى زادت دهشتها بعد شمت رائحة زوجة الدون المعطرة تعبق في أرجائه ، لتستيقن أخيرا من صحة شكوكها الحائرة حول الدب الأحمر و تكتشف بأنه ليس سوى شخصية خيالية صنعها الدون ماركو بنفسه لكي يبعد من خلاله الأنظار عن تجارته السرية بالرقيق الأبيض و المرتبطة بالدعارة لما وراء البحار عبر ما رأته بأم عينيها

[١٢] يقصد اللغة الإسبانية (المؤلف) .

الزيتونتين آنذاك ، و مع ذلك كذبت كل ما حدث و إعتبرت الحقائق الرهيبة بأدلتها الدامغة عن زوجها التي توصلت إليها محض هراء حيث لا تزال حتى هذه اللحظة مفتونة به و حبه الجارف الذي ينخر عظامها مذ وطأت قدماها بلاط قصره المخملي ، ظلت هواجسها تغلب عليها للحظات قبل أن تلوذ بالفرار الصامت على إثر سماعها وقع أقدام تدك الرواق بسرعة شيئا فشيئا و خرجت من هناك دون أن يراها أحد ما و تعود أدراجها سالمة إلى غرفتها و تمسح آثار الدماء و التراب التي تلطخت بهما إثر سقوطها قبالة باب قبوها المظلم أثناء فرارها السريع منه و تنام في غرفتها و كأن شيئا لم يكن .

و مع ذلك لم يتوقف عقلها عن التفكير و التوتر المسيطرين عليهما منذ البارحة حول هذا الموضوع الشائك حيث لم تذق حينها النوم طوال الليل قبل أن تستيقظ سريعا و تستحم و تبدل ثيابها و تتجه إلى طاولة الإفطار مع زوجها الذي كان موجودا هناك منذ اللحظة الأولى كالعادة و كأن شيئا لم يحدث :

(صباح الخير حبيبتي ،،،،،،،،،، صباح الخير يا عزيزي ماركو ،،،،،،،،،،،، الله ، جميلة عبارة عزيزي ماركو التي تلفظينها الآن يا عزيزتي ، هكذا أريدك أن نتعامل فيما بيننا كزوجين متحابين و ليس كغرباء (يلمس خدها بيده) مفهوم يا عزيزتي ؟ ،،،،،،، (تقبل يده التي لمستها) مفهوم يا روحي النبيلة في عمق جسدي المتواضع ،،،،،،،،، (يقبلها رأسها) تسلمي لي يا أجمل لؤلؤة في باهيا بلانكا قاطبة ..... (ينظر إليها بإستغراب) عزيزتي ! ما هذه الكدمات و الجروح على وجهك ؟!! ،،،،،،، أية كدمات ؟ ،،،،،،،،، تلك التي على جبهتك و حاجبيك ؟!!! ،،،،،،،، لا لا أبدا ، كل ما في الأمر أن الأضواء كانت مطفأة و نهضت من سريري إلى الحمام فسقطت على الأرض فقط ،،،،،،،،،، و سقوطك على الأرض يتسبب بهذا الجروح الغائرة للغاية ؟!! ،،،،،،،، لقد

سقطت على أرضية الحمام بعدما تزحلقت عليها ،،،،،،،، أوه يا عزيزتي ، إنتبهي لنفسك جيدا ، أو إستعيني بالخدم لو لزم الأمر لتصريف أمورك أثناء غيابي يا حبيبتي ، مفهوم ؟ ،،،،، مفهوم ،،،،،،،، الآن تناولي فطورك و من ثم بدلي ثيابك لأني سآخذك إلى نزهة لطيفة بالعربة إلى منتجع سانت كارلو ، حقا ؟ إنه أسعد خبر سمعته في حياتي ، أشكرك من كل قلبي يا حبيبي ،،،،،،، لا شكر على واجب يا حبيبتي ، تناولي فطورك بهدوء ، لن يتأخر الوقت ،،،،،،،،، حسنا ،،،،،،،،، (يأتي بيدرو متطفلا عليهم بسرعة) سيدي الدون ، سيدي الدون ،،،،،،، ماذا دهاك بيدرو ؟ كيف تتجرأ على التطفل علينا هكذا و أنا و زوجتي نتناول الفطور ؟!! ألا تستحي من نفسك ؟!!! ،،،،،،، آسف يا سيدي الدون ، لكن الموضوع الذي أنا بصدده ملح للغاية و لا يحتمل التأجيل (يهمس) ،،،،،،، حسنا حسنا ، مفهوم ..... عن إذنك يا عزيزتي (تومئ رأسها بالرضا) هيا بنا إلى غرفة المكتب أيها الغبي ،،،،، حسنا سيدي)

بدأت بيانكا بالصعود إلى غرفتها تتاقز طربا عبر السلالم المكفتة بالذهب الخالص سنجابا بريا يأوي إلى بيته في قلب الشجرة جزلانة نشوانة من شدة السعادة الغامرة لأنها ستذهب إلى منتجع سانت كارلو الفخم الذي لا يزوره سوى الأثرياء ثراء فاحشا بسبب أسعاره الباهظة و لم تكن تستطع عائلتها رغم مكانتها المرموقة في المجتمع الأرستقراطي الأرجنتيني آنذاك أن تفي بعشرها حتى ، فبدلت ثيابها بأفضل الثياب التي لديها هكذا مناسبة و تعطرت بأجمل العطور الفرنسية الغالية الثمن و بأجود الماركات المعروفة منها آنذاك في ذلك الوسط ، و ما أن إستعدت و تجهزت حتى نزلت بإتجاه مكتب زوجها الدون الذي يستشيط غضبا و حنقا فتوقفت لبرهة بعدما أرعبها صوته للحظة حينما كان يحاور بيدرو :

(ألم أقل لك ألا تأتي إلى هنا مجددا ؟ ،،،،،،،،،،، و ما المشكلة في ذلك سيدي الدون ؟ ألم تستخدم نفوذك و علاقاتك في الدولة لإغلاق ملف قضية إغتيال السينيور باولو إلى الأبد ؟! ،،،،،،، مهما يكن ، لقد أخبرتك مرارا و تكرارا بألا تأتي إلى القصر و قد حددت لك مكانا معينا بعيدا عن الأنظار حتى نلتقي به ،،،،،،،،،،، و لماذا يا سيدي الدون ؟ لا أحد يعلم هنا بأني قتلت السينيور باولو بأمر منك ، و حتى لو علموا فلن يحركوا ساكنا أو حتى يجرؤ على مواجهة الدون ماركو ..... ،،،،،،،، أنا لا يهمني الناس و لا أخاف منهم البتة ، و لكني لا أريد أن يصل هذا إلى الرئيس ديلورينزي الذي كان بمثابة صديق للراحل باولو و عائلته فيستغلها لصالحه و دعم مستقبله السياسي لينتقم مني .....)

لم تتمالك بيانكا نفسها من شعورها بالصدمة الممزوجة بالدهشة الساذجة التي حطمت كافة الحواجز الشائكة التي كانت تقف حجر عثرة أمام شكوكها الخانقة لعقلها نحوه ليقطع بيدرو بإعترافه المباشر دون أن يدري قول كل خطيب ، فلم تنتظر بقية حوارهم الحاد فعادت إلى غرفتها حزينة كسيرة القلب تجر وراءها أذيال الخيبة و اليأس ممن إعتبرته أملها الوحيد في الحياة بعد رحيل والدها المبكر عن دنياها المليئة بالإحباطات و الهزائم غارقة في بركة دموعها التي لم تتوقف سيلها عن التدفق إلى سريرها العاجي المطعم بالذهب الخالص دقيقة واحدة .

ما أن أنهى الدون ماركو حديثه الحاد مع بيدرو بطرد الأخير من مكتبه و هو يتوعده بالانتقام منه حتى صعد إلى غرفته ليتفاجأ بوجود زوجته منكفئة على نفسها و تجلس جلوس الجنين المقرفص في بطن أمه :

(ما الأمر يا عزيزتي ؟!! أراك لم تبدلي ثيابك بعد من أجل الخروج للنزهة ؟!!! ،،،،،،،، (ترفع وجهها بعينين محمرتين من شدة البكاء) عن أية نزهة تتحدث ؟ ،،،،،،،، النزهة التي ..... ما

بها عيناك تبدوان هكذا ؟!!! و لما تبكين ؟!!!!! (يبدأ بالإقتراب منها) هل أصابك مكروه ؟ ..... ،،،،،،،،،، (تشير بإصبعها نحوه بغضب) لا تقترب مني ، إياك ثم إياك الإقتراب مني ،،،،،،،،،،،، ما الأمر يا عزيزتي ؟!!! لما تحتدين في الكلام معي ؟!!!!! ،،،،،،،، (يجلس على السرير و يقترب منها فتقفز مذعورة من أمامه و تتشبث بالدولاب) قلت لك إياك أن تقترب مني يا هذا ، إلا تفهم ؟ ،،،،،،،،،، ويحك يا فتاة ؟! ماذا دهاك ؟!! كيف تجرئين التحدث معي بهذا ؟ هل نسيت أني الدون ماركو ماتزيني سيدك و زوجك ؟!!! ،،،،،،،، آه ، و أنا جاريتك يا مولاي التي إشتريتها بأموالك ، أليس كذلك ؟ يا لك من نخاس حقير ..... ،،،،،،،، إخرسي عليك اللعنة (يمسكها بشدة و يصفعها صفعة قوية أسقطت إثنان من أسنانها) إخرسي و إلا قتلتك ،،،،،،،،،،،، مثلما قتلت والدي بدم بارد ، أليس كذلك ؟ ،،،،،،،،، ماذا ؟!!!!)

(٨)

ظل الدون ماركو قابعا على كرسيه الهزاز في باحة قصره الوارفة الجنان و الورود و زقزقة العصافير و البلابل الصداحة بأجمل الأنغام دون أن تخرجه من قضبان سجن تفكيره المتواصل بعد أن ألجمته الدهشة البالغة على إثر حواره العاصف مع بيانكا الذي كشف كافة أسراره و تجارته السرية المكشوفة أمامها منذ البارحة و التي رأسمالها الرقيق الأبيض حيث يبيعوهن لبيوت الدعارة و المواخير و الملاهي الليلية و دور عرض الأزياء الايطالية و الفرنسية آنذاك مما جعلها تغادره عائدة إلى بيتها بحجة أنها إشتاقت لأمها دون أن تكشف سره لأحد ما أثار إستغرابه و زاد في حيرته أكثر فأكثر :

(أمازالت تحبني إلى هذا الحد ؟!!! ،،،،،، و إذا كانت تحبني لما تركتني و تخلت عني ؟!!!! ،،،،،،، أم أنها لازالت تكرهني بعدما إنكشفت حقيقتي المرة لها ؟!!!! ،،،،،،،، إذن ، لماذا لم تكشف سري لها أمام والدتها على الأقل ؟!!!! ،،،،،،، لقد مر أسبوع على وجودها في بيت أبيها و لم يحدث شئ ؟!!!! ،،،،،،، أم أنها تعاقبني هكذا و تجعلني فريسة للحيرة و الإرتياب ؟!!!! ،،،،،، تبا لك يا بيانكا ، تبا لك ؟!!!!)

و ظل هكذا طوال النهار على هذه الحال حتى ولوج الليل بستاره يرخي سدوله أرجاء المدينة ، إلى أن نهض فجأة و إتجه صوب العربة و أمر سائقها بالذهاب إلى قصر السينيور باولو بسرعة الريح الهادر دون أن يهتم لما يجابهه من عوائق و مخاطر أثناء خط سيرهم حتى وصولهم إلى هناك بعد أن تلطخت بعضا من جنبات العربة و ثيابه أيضا بالوحل دون أن يمنعه من الخروج و التوجه إلى البوابة غير مبال بحارسها الذي ظل طوال الطريق يصرخ عليه محاولا إيقافه بعدما نحاه بعنف جانبا مما أثار إنتباه من في الدار و من بينهم بيانكا :

(ما الأمر يا عم خوان ؟! لما تصرخ هكذا ؟!!! ،،،،،،،، عفوا سينيورا بيانكا ، و لكنه الدون ماركو هنا ،،،،،،،، الدون ماركو هنا ؟ رغم كل ما حدث ؟!!)

لم تكن بيانكا مندهشة من قدومه حيث كانت على يقين من ذلك ، في البداية إستقبلته إستقبالا جيدا بوجود والدتها التي بدورها قامت بالمثل قبل أن تنصرف و تتركهما و شأنهما :

(ما الذي أتاك إلى هنا بحق الجحيم ؟!! ألم أقل لك بأن كل ما بيننا قد إنتهى ؟!!! ،،،،،،،،،، إذا كنت تعتقدين أن إيعازك للحارس بمنعي من الدخول لإخباري بإنقطاع علاقتنا ببعضنا البعض إلى الأبد فأنت مخطئة ، لأنني لن أتخلى عنك البتة ،،،،،،،،،، هه ، لا تتعب نفسك يا عزيزي أو تحاول أقناعي ، فمن المستحيل أن أعود إليك ،،،،،،، ألهذا الحد تكرهينني و أنا أحبك حب العبادة ؟!! لقد أتيت إليك زاحفا بقدمي لأعيدك إلى المنزل ، فأنا لا أستطيع العيش بدونك ..... ،،،،،،،،،، أنت لم تأت إلى هنا من أجلي بل من أجل أن تتأكد من عدم كشف أسرارك و جرائمك المخزية التي إعترفت لي بها للناس ..... ،،،،،،،،،، الدون ماركو لا يخشى أحدا و لا حتى من الدولتين الأرجنتينية و الايطالية على حد سواء لكي تخيفينني بهذه الحقائق الهزيلة ،،،،،،،،،، بل أستطيع ..... ،،،،،،،، إذن خبري والدتك بكل شئ ..... لما أنت صامتة ؟ هيا ، خبريها ؟ (تسكت) أرايت ؟ أنت لا تستطيعين الأقدام على ذلك ، حبك الجارف لي يمنعك من ذلك ،،،،،،، غير صحيح كل ما في الأمر أني خائفة على مشاعر والدتي من الصدمة فقط لا أكثر ،،،،،،،، حقا ؟ ،،،،،، حقا ..... لما تسأل ؟ و ما شأنك في الموضوع ؟ ،،،،،،،، شأني أني أحبك كثيرا و لا أطيق صبرا العيش من دونك ، أنت لا تعرفين مقامك بالنسبة لي كمقام والدتي الراحلة ، لقد عانيت من العزلة و الوحدة لفترة طويلة لدرجة أن صرت إنسانا مستوحشا لا يعرف الرحمة ،،،،،،،،،، رغم جيش الفتيات اللائي تاجرت بأجسادهن دون شفقة أو رحمة ؟ .....

،،،،،،، أنا لم أجبرهن على دخول عالمي الخاص ، بل إخترن الولوج إليه بملء إرادتهن (مشيرا بسبابته نحوها) مثلك أنت تماما ،،،،،،،،،، ماركو ، ما الذي تريده مني الآن رجاء ؟ ،،،،،،،،، أن تعودي إلى بيتك ..... ،،،،،،،،،، لن أعود ،،،،،،،،، ستعودين ،،،،،،،، لن أعود ،،،،،،،، لن أعود ،،،،،،،،، بل ستعودين و إلا .... ،،،،،،،، و إلا ماذا ؟ هل ستنادي رجالك المخلصين لأخذي من هنا بالقوة ؟!! ستعودين معي و إلا إستدعيت الدب الأحمر لكي يؤدبك و يجبرك على العودة إلى منزلي ،،،،،،،،،، ها ها ها ؟!! حقا ؟!!! و هل ستذهب إلى منزلك لترتدي ثيابه الوهمية لتخيفني به ؟... ،،،،،،، كفي عن هذا الهراء ، الدب الأحمر حقيقة دامغة ، و سترينه الآن)

كانت تخاله يمزح دون أن تتيقن الحقيقة المخيفة الماثلة أمامها حينها عندما راقبته مذهولة و هو يتمتم بعبارات و تعاويذ بلغة الغوارانيين التي لا تفقهها البتة و يتحول على إثرها شيئا فشيئا إلى دب مشتعل بطول ناطحة سحاب و حجم جبال باتاغونيا مجتمعة و صرخاته إعصار هادر يجرف ما حوله من حجر و بشر في باهيا بلانكا بمن فيها والدتها بعدما مزقت أنياب رياحها الملتهبة جسدها الضئيل إلى أشلاء متناثرة صارت لقمة سائغة في جوف أمعائها الهوجاء التي لا ترحم :

(الآن عرفت أن الدب الأحمر ليس كذبة يا عزيزتي ؟ و ستنالين عقابك على مخالفتك لي حالا كوالدتك)

و ما أن بدا ثورته الغاضبة عليها و إقترب منها حتى تجمدت من الرعب من هول ما يحدث أمامها فإنكفأت على نفسها باكية تستجدي المادونا أو مريم العذراء أن تنقذها حتى توقف :

(و لكني لا أستطيع أن أقتلك (يذرف الدمع) لا أستطيع أن أطفئ نور الأمل في جسدي المثخن بسهام الحقد و الظلم و القسوة و القوة التي زرعتها أمي و المجتمع فيه دون رحمة أو شفقة ، و

سأدعك تعيشين لتزرعي في غيري الحب و الأمل كما حدث معي حتى و لو أدى إلى وفاتي و وفاة الدب الأحمر الذي بداخلي إلى الأبد ، لأنه في حال أن لم يستطع أن يقتل أية إمرأة تتمرد عليه و يبقيها حية فهذا يعني موته المحتم ، وداعا ،،،،،،،،،،،،،، (تنفجر أجزاء من جسده و هي تصرخ) ماررررركوووووووو)

و سرعان ما ينفجر الدب الأحمر و يتفرق جسده الضخم نيازك أو شهبا عملاقة تدمر ما حولها و لم تبق في باهيا بلانكا حجرا على حجر و دون أن تتضرر بيانكا من جرائها قيد أنملة رغم ولولتها المتعالية عن حدها و هي تتأمل حزينة منكسرة القلب الوحش الذي أحبته حب العبادة و بلا حدود و تركته يحترق من نار الفرقة و البعد عنها على الرغم من أنه قتل والديها معا دون رحمة أو شفقة على إثر إقتحامها عالمه السري دون أن تقتحم قلبه القاسي و تفكر حتى في إخراجه من براثنه السوداء على الإطلاق و لو بشق تمرة لأنها تعلم علم اليقين أن الأرض التي لم ترتوي بالحب الصادق تتحول إلى يباب قاحل لا يعرف في جوفه الخير و الأمل و لو بعد حين .

(النهـــايــة)

العنـــوان : صـــنعاء – شـــارع المطـــار – حـــارة الكبســـي – حـــي الجـــراف الشـــرقي – خلـــف مطـــابع الكتـــاب المدرسي

تلفون : ٧٧٠٠٩٨٤٠٧

البريد الإلكتروني : nashwan.zaid@gmail.com